كتاب الهلال

عبقرية خالد

تأليف
عباس محمود العقاد



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٥ ــ رمضان ١٣٧١ ــ يونيو ١٩٥٢

No. 15 — June 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ــ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ــ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية او لبنانية ــ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ــ فى الامريكتين ٥ دولارات ــ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

عبقرية خالد

تأليف

عباس محمود العقاد

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدا من نوابغ القـــادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية فى صدر الاسلام ..

وكان يلى خراسان لملوك الدولة الأموية ، فخرجت بهـا خارجة أهمته ، فقيل له : « ما يهمـــك منهم ؟ وجه اليهم وكيع بن أبى مسعود فانه يكفيكهم » فأبى ، وقال : « لا .. ان وكيعا رجل به كبريحتقر أعداءه . ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة ... »

وهذه كلمة من كلمات القائد العربى تنبىء عن كثير ..

تنبىء عن ملكة القيادة فيه ، وتنبىء عن ملكة السيادة فى الأمة التى نشأ منها واستطاعت بها أن تســوس الأمم فى الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء ..

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيهـا جميعا ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوته وسبر قوة خصمه . وكل ما عدا ذلك فانما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التى ينازلهـا أن تصنعه ، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين فى المكان الذى يتلاقيان فيه

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسـباب كثيرة : منها ضعف العقيدة ، واختلال النظام ، ونقص القيـادة ، وانحلال الترف وتفرق الآراء .. ولكن البلاء الأكبر انما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاســـتخفاف بالخصم المقاتل . فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار ، وكان الاستخفاف والاهمـال شرا على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفزع . بل كان

الاستخفاف والاهمال سببا لانقلابهم آخر الأمر الى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت فى الأعضاد ، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان

□

كانت دولة الفرس لا تنظر الى البادية العربية الا نظرة السيد المبجل الى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون اما الى العطاء واما الى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث الى النبى العربى بشرذمة من الجند تأتيه به فى الأصفاد ! وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة انهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب فى معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة . فاتفق فى بعض وقعات العراق أن زعيما عربيا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسى مهران بن بهرام ، ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده . فقال له: « ان العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا ! » ، فجاراه القائد الفارسي مجاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون والنجدة ، وقال له : « صدقت لعمرى ! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم » .. فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون فى صفوفهم، وسألوه: « كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟ » . . فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم ، وقال لهم: « دعونى فانى لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم .. فان كانت لهم على خالد فهى لكم . وان كانت الأخرى لم يبلغوكم — أى المسلمين — حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون ..

وسخفوا فى طلائع وقعة « أليس » فلم يحفلوا بجيش

خالد الزاحف اليهم وتنادوا الى طعامهم الذى هيأوه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام !

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور فيمواجهة البادية العربية ، وكان قصارى ما حذروه فى أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم الى الصحراء .. فان أوغلوا في بلاد الدولة الرومانية فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس اليهم . فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها اذا هى تنقلب من الغفلة الشديدة الى الفزع الشديد

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم .. فما يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئا قد حصل وكان ينبغى أن لا يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار !

وبعضهم يلتمس العلة فيقول : « انما هى وهن الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال»، أو يلتمس العلة فيقول: «انها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم الى مثل هذه العقيدة .»

وكل أولئك تعليل ناقص من بعض نواحيه

فالمصادفة لا محل لها فى حوادث الوجود ، ولا تطرد فى قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء الى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقية والصين

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها هى وحدها لا تغنى عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد • وقد كان المسلمون فى عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادى حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ••• ويومَ حنينٍ اذْ أعجبتكمْ كثرتكمْ فلم تغن شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع اليها لفهم الغلبة الاسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه الحقيقة هى أن المسلمين كانوا أيضا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وان البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الاسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها معظم المؤرخين الأوربيين ، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشى منهم العرب والمسلمين

فالصورة الشائعة فى خيال أكثر القارئين عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن الا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسى والمقاليع ، لا ترجع الى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل

حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها فى اختبـار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة

فمن الخطأ « أولا » أن تستـــخف بالرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات ، حتى لو صح أنها كانت هى كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال

فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التى تشترك فيها القبـائل أبدا بين عادية ومعدو عليها ، وأن البدوى قد عاش زمنا كمـا جاء فى التوراة « يده على كل انسان ويد كل انسان عليه » • فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى « حاسة الحرب » أو أهبة الميدان الخالد التى لا تفارقه فى ليـل ولا نهار • فلا يزال حياته فى حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذى يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى ، ويتدربون عليه كأنه عمـــل يؤدى فى مكان العمل ثم يطرح عن العاتق فى سائر الأوقات

ومن الرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الأدبار ، لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة فى كل وقعة يخوضون غمارها ، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع فى روع صاحبها أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم • فهو فى حالة صالحة لاستئناف القتال ان أقبل وان أدبر ،

وسواء طمع فى النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر ليتقدم فى حينها أو بعد حين ، ويتحول الى الوراء كما يتحول الى الشمال أو اليمين ، طوعا لأمر مقصود وجريا فى عنان ممدود ، ومن هنا تيسر لقواد العرب فى الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش المنهزم فى سويعات معدودات وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل

ولن تخلو العصابات المغيرة ـ مع طول المرانة ـ من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والافلات،وهى على بساطتها أصول لا ندحة عنها فى أكبر الميادين وأصغرها على السواء

هذا ان صح أن حرب العصابات هى كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال فى تاريخهم القديم

وذلك غير صحيح

فالعرب قد عرفوا فى حروبهم التى وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام، وقيل أن جيش الغساسنة الذى حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفا بين راجل وفارس ، وكان فى الجيش معا راكبو الخيل وراكبو الابل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة الى الميادين القريبة ، ولكن القبائل التى لم تكن على شىء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التى تساوى فى عددها بعض جيوش القتال فى عصرنا الحديث ، فاستعدت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثانى بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة

ما هو محتو لكل عناصر الكفاح الأولى في كل زمان

على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمته دول الحضارة في عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهم في الفرق المتطوعة على حالى الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحيانا كتيبتان من الجيش الفارسي هما الشهباء والدوسر أو « الدوشير » بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية ، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربي الى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التي يحتاج اليها في تعبئة الجيوش وللفطنة الى المخاوف التي يتقيها في مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة

وقد تبين هذا فعلا في وقعة ذي قار التي تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية • فان العرب كانوا في تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية • فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية : بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم الى ميمنة تولاها بنو عجل وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هانىء بن مسعود ، وأنفذوا الى قبائل العرب الذين في جيش الفرس رسلا يثيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلي عن أصحابهم حين يجد الجد ويلتحم الجيشان • فوافقتهم أياد وبرت بوعدها فولت من الميدان في أحرج الأوقات

ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية ، بل تشاوروا في أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه « مجلس الحرب » في

اصطلاح هذه الأيام • فقال ربيعة بن غزالة السكوني : « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا كراديس ، فان أقبلوا على كردوس شد الآخر» •
وقال حنظلة بن ثعلبة : « ان النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم ، فاذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ، وابدأوهم بالشدة » • وقال يزيد بن حمار : « أكمنوا لهم كمينا » ففعلوا وأكمنوه فى موضع يقال له الخبيء وأوصوه أن يظهر حين يستحر القتال بين العسكريين وتفسر قبيلة أياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم واقبال المدد الى خصومهم ، مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية ، فعمد حنظلة بن ثعلبة الى وضين راحلة امرأته ــ أى حزامها ــ فقطعه ، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعا فسقطت على الأرض، وصاح بقومه : «ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته ! » •• وراح السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف،وتسابق الخطباء والشعراء فى التذمير والتحريض فذهبوا جميعا يرددون قول قائلهم « المنية ولا الدنية واستقبال الموت خير من استدباره »

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ثم التحم الفريقان وحمى الوطيس وظهر الكمين فى أوانه وولت أياد فتبعها فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التى فوجئوا بها على غير رقبة ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش العربى كلهفحقت الهزيمة العاجلة على أقوىالجيشين، وكتب النصر لأولى الفريقين به فى ميزان الفن العسكرى

الذى يشمل جميع المرجحات ، ما عدا المرجح المادى دون غيره ، وهو العدد والسلاح

اذ الحقيقة أن غلبة العرب فى يوم ذى قار انما كانت غلبة لليقظة على الغفلة، وللكفاية على العجز، وللخفة على الفخامة، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر فى الحروب القديمة والحروب الحديثة ، الا تفوق الفرس فى بعض العدد التى لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللا فى خطتهم لم يلتفتوا اليه أو يحصى عليهم وجها من وجوه التدبير قصروا فيه ، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للمقاتل :

(١) أهبة الاستطلاع • و (٢) رسم الخطة • و (٣) تنظيم الجيش فى مواقفه • و (٤) تنظيم الجيش فى حركاته • و(٥) اذكاء العزيمة فى نفوسه و (٦) اضعاف العزيمة فى نفوس خصومه ، وهذه كلها هى صفوة لبـــاب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة ، وفى جميع العصور الى آخر الزمان

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم فى أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغا فيها على الأقل فى ميـــــادين الاشتباك والالتحام ، اذا صح أن لها الرجحان فى مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد • لأننا عرفنا من أخبـار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة ، وكانوا يخلعـــون عنهم شكتهم تبرما بها وتخففا من ثقلها ولا سيما فى أيام القيظ أو فى المواضع الوعرة التى تصعب فيها حركة المدرعين فى الشكة السابغة ، وكان بعض الضباط من النبـــلاء يستصحبون

خدما لهم ليحملوا لهم شكتهم الى حين الحاجة اليها ، وجاء فى كتاب فيجتيوس Vegetius انجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنود كانوا يضيقون ذرعا بالدروع المعدنية ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها، ولم تكن لهم حاجة بها الا حين يرادون على الاقتراب مع مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة ، لأداء عمل من الأعمال

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معا بنشأتهم فى البادية واقترابهم من دول الحضارة • ونعنى بهما طريقة العصابات وطريقة الجيوش فى ادارة الحروب

□

فهم قد برعوا في حرب العصابات بالمرانة الطويلة ، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك احدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما فى موضعها ، فأضافوا سرعة العمل فى طريقة العصابات الى أحكام التنظيم فى طريقة الجيوش ، وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذى لا يحسنون التجديد فيه

ومن المحقق أن قبائل العرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين، اما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل قريش التى كانت تقيم فى عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية ، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التى يدين بها جميع هؤلاء

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقةلنعرف موقع العدل والانصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التى تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هى قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التى لا مصادفة فيها ولا محاباة ، ولا محل فيها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار

وانما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت فى أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها

كانوا متفرقين بغير باعث الى الوحدة والنهوض، فجاءتهم الدعوة الاسلامية تجمعشتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلقبهم فى سبيلهم • فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر فى شرعة الأرض والسماء ، وعلم النبى عليه السلام بيوم « ذى قار » وهو يدعو العرب الى دين التوحيد ، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم ، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام ، وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعا عما قريب

قريش ومخزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاء الجزيرة كلها بين حاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها الى حديثها

لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة ، وكانت تقيم فى عاصمة الحجاز والى جوار الكعبة التى يحج اليها العرب، تبركا بحرمتها ولياذا بأصنامها ، ويحملون الى أسواقها أزواد الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون اليها أزواد القوت وسلع التجارة

وكانت قريش تتنقل الى بلاد العرب كما يتنقل العرب اليها من بلادهم ، فكان لها رحلتان فى الشتاء والصيف :

احداهما الى اليمن والأخرى الى الشام ، وكانت تضيف الى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس ، حيثما نزلت فيطريقها مندیار العرب أو من ديارالروم والحبشة، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها

والعرب من دأبهمحفظ السير ورواية الأحاديثوالتنقيب عن الأخبار والطوايا ، لأن الاستطلاع من طبيعـــة سكان الصحارى ، وتتوقف سلامتهم أحيانا على خبر يعلمونه فى أوانه كما تستهدف أرواحهم أحيانا للخطر العظيم من جراء طارىء داهم تفوتهم الحيطة له فى حينه ، ولم يزل أبنـــاء القبائل على ولعهمالمأثور بالسير والأخبارلغير هذه الضرورة التى يدعوهم اليها حب الأمن والسلامة • فهم غيـــورون على تراثالآباء والأجداد تفاخرا بالنسبالعريق وتصحيحا للعلاقات وتمييزا للأقربين والبعداء

ومع هذا الولع الأصيل فى الطبيعة العربية باستقصاء الخبر ، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشا تجهل شأنا من شؤون الثقافة العربية ، وهى تقيم فى مثـابة الجزيرة كلها وتسهر على عاصمة العرب ، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله الى جنوبه ومن جنوبه الى شماله ، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهى فى مرقبها الذى تطل منـه على كل ما يعنيها

فقلما غاب عنها علم وصل اليه أبناء الحواضر والبوادى باجتهادهم واختبارهم ، أو وصلوا اليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية

وقلما خفى عنها فن من فنون ثقافة العرب فى مصـالح السلم والحرب ، أو معارض السياسة والشؤون الاجتماعية

ونظن أنخطأ المؤرخين فىتقدير معارف العربالسياسية لا يقل عن خطأهم فى تقدير معارفهم الحربية ، وقد كانت

كما رأينا كفؤا لحضارة الدولة الفارسية وتجارب قوادها وأساورتها

وكذلك كانت لهم فى السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ الى بواطنها ، فهى لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية، ولكنها كذلك لا تنزل الى الفوضى ولا الى الغريزة الهمجية التى لا مساك لها ولا تدبير فيها

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية أن العالم القديم لم يعرف قط نظاما من أنظمة الحكم الا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجرى على عاداتهم وخلائقهم

عرفوا نظام الامارة التى ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه

وعرفوا نظام الامارة التى يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل فى قضايا الرعية بمعونة ذوى الرأى منها « الا أن يكون غزو أو قتال » فهو باسم الملك دون غيره، وهو النظام الذى جرى عليه أهل الحيرة زمنا مع ملكهم المنذر ونائبه زيد بن حماد من بنى أيوب

وعرفوا نظام الامارة التى يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنها الى الموطن الذى تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين . وعلى هذه السنة اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وأكل قويهم ضعيفهم فقال شيوخهم : « لا نستطيع دفع ذلك الا أن نملك علينا ملكا نعطيه الشاة والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوى ويرد على المظلوم من الظالم ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، ولكنا نأتى تبعا فيختار لنا » فقصدوه فملك عليهم حجرا أميرا كندة، وهو أبو امرىء القيس الشاعر المشهور

وعرفوا الحمايات على أنواعها : حمـــاية الامارة التى تستعين بجيش أجنبى ، وحماية الامارة التى تعتمد عـــلى جيشها ، وحماية الامارة التى تدين لدولة واحدة أو تدين لدولتين . كما حدث ذلك فى ملك اليمن بين الحبشةوفارس وسادات البلاد

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة الى نسب واحد ، ورئاسة الرحـــل الذين يرعون الابل والشاء ، ورئاســة أهــل المدر الذين يغــرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم الى موسم

وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها فى مواضعها وتقتبس منها ما هى فى حاجة اليه ، ولكنها لم تأخذ بنظام الامارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من احداها ، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية ، ولم يوافقها نظام أهل الوبر ولا نظام أهل المدر لأنها كانت وسطا بين الحضارةوالبداوة كما قدمنا ، وكانت ترعى مصالحها ومصـــالح الوفود التى تقبل اليها حاجة أو متجرة وليست هى من عشائرها التى تقبل منها حكم الشيخ فى قبيلته على أية صفة من صفاتها

فاختارت لها نظاما فريدا يوفق بين هـــذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها ، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين ، وانما يؤول الرأى الأخير فيـــه الى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن فى القبيلة ، ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشـــورى التى ترضى بالمجاملة وان لم يكن فيها رضى بالحقيقة . اذ الحقيقــة أن المرجع الأخير الى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء ، كلمــا حزب الأمر وتشعبت الآراء .

ومن زكانة الحكم عنـدهم أنهم فهموا منـــاط الرئاسة القرشية التى يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من

الحضر والبادية ، وهى الدين واللغة والتجارة المشتركة

فحفظوا مناسك الكعبة ، وجعلوا أسواقهم معرضا للبلاغة الشعرية والخطب المروية ، وتعاهدوا على ضمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها ، أو اعتدى معتد على حقوقها

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم ، فانتهى الشرف الى عشرة بطون هم : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج ، وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها الى قائدهم المختار ، وكانت لنوفل الرفادة وهى اعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة والحجابة واللواء ، وكانت لبنى أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى فى مهمات الأمور ، وكانت لبنى تيم الديات والمغارم ، وكانت لبنى مخزوم القبة وهى مجتمع الجيش والأعنة وهى قيادة الفرسان ، وكانت لبنى عدى السفارة ، ولبنى جمح الأيسار أو الأزلام ، ولبنى سهم الحكومة والأموال المحجرة، وظلوا يتداولونها جيلا بعد جيل الى ظهور الاسلام

ولم يكن لهذه « الوظائف » الموزعة شأن واحد فى جميع الأوقات والأحوال ، بل كانت تعلو وتهبط على حسب الزعيم الذى يتولاها وعلى حسب القوة التى يكون عليها بيته عند ولايته اياها . ولكننا اذا نظرنا اليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به « جبر الخاطر » والارضاء وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الادارية الثانوية فى حكوماتنا الحاضرة ، ولم نجد بينها « سلطات » فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن بغير ثلاث متفرقات ، وهى السلطة

الروحية لهاشم وعبد الدار ، والسلطة السياسية لأمية ، والسلطة العسكرية لمخزوم

من بنى مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد ـ بطل هذا الكتاب ـ وكانت نشأته فى أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها ، فلم يكن من أبوته أو عمومته الا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية

كان جده المغيرة بن عبد الله ، الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيرى تشرفا بالانتساب الى الفرع الذى أناف على الأصول

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد ، لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى

وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت للضيافة يأوى اليه من شاء بغير استئذان

وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة كما أشار النبى عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية

أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات • فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين • ولقب

أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفى أصـــحابه في السفر مؤونتهم فلا يتزودون بزاد

ويظهر أن بنى مخزوم هؤلاء كانوا فى ثروتهم وعدتهـم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منهـا عن سائر بطونها • ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بنى هاشم وبنى أمية وبنى عبدالدار، وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون فى جد واحد أقرب من الجد الذى يجمعهم ببنى مخزوم ، وهو مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين

وقد تبينت رجاحتهم هذه في مواقف كثيرة قبل الاسلام وبعده • فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليمانى ، واشتركت قريش كلها فى بناء بقيـة الأركان

وكان لبنى مخزوم وحدهم فى وقعة بدر ثلاثون فرسا من مائة فرس لقريش كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأزواد والأمداد

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة ، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والأمـوال ثم تشيل كفتهم مرجوحة فى ميزان الفخار

ولا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والخنزوانة بينهـــم وبين بنى عبد مناف حين تظهر النبوة فى هؤلاء ولا تظهـر فيهم

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل : « تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء •• فمتى ندرك هذه ؟ »

وانما قال أبو جهل « بنو عبد مناف » ذهابا الى الجد الذى يجمع هاشما وأمية وعبد الدار ، كأنه يستعلى فى كبريائه أن ينافس هاشما وحدها دون أن يصعد الى أبيها الذى يجمع بينها وبين غيرها

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ، ويقول : « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ » .. ففى ذلك يقول القرآن الكريم : « وقالوا لولا نزلَ هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم »

ونحن نعلم الآن أى عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية في طريق الاسلام اذ نرجع الى الآيات التى نزلت فى رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم فى آبائهم وأجدادهم، فلم ينزل فى رؤساء قبيلة مثل ما نزل فى رؤساء هذه القبيلة ، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم في ردود القرآن على أقوالهم ، وهى أقوى ردود عرفت فى السور المكية الأولى ، على ما جاء فى الأيام الكثيرة من سورة ن وسورة المدثر وسورة الكافرون ، عدا اشارات أخرى فى سورة الحجر وعبس وتولى

وكل أولئك فحواه شيء واحد ، وهو أن بنى مخزوم باءوا بأسباب المحافظة على القديم جميعا حين تصدى الاسلام لتبديل ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهذه الدعوة الجديدة وآخر من يليها وله مندوحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين الاسلام والجاهلية فى وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليد الذى انتهى اليه شرف الرئاسة المخزومية فى ذلك الأوان

والناس يختلفون فى تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ويصدقون فى تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون

بينهم تفاوت النقيض والنقيض • لأن البيئة مستودع شامل يوجد فيه الحسن والرديء ويأخذ كل منه على حسب مأتاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه

فاذا قيل سيد من سادات قريش أو نموذج من نماذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والنعوت الوسطى التي تشيع في هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة في الشذوذ والاستثناء

فالغالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة ، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوى الأحلام فى علاج المشكلات وتدبير الحيل ومصانعة الناس والأيام

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت اليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم منوطا بعدة الحرب وقيادة القبيلة فى غزواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة والاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التى كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار

وقد وجد فى أسرة خالد من يكثر من الاقراض بالربا ومن يرى فى أموال الربا شيئا من الدنس يقاربه فى أحوال ويستبعده فى أحوال أخرى

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها ديون تحسب

بالالوف لم يزل خالديتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملا بالقرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقيَ من الربا انْ كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله ، وان تبتمْ فلكم رءوسُ أموالكم لا تظلمونَ ولا تظلمون »

وكذلك وجد في أسرته من نزه الكعبة عن أموال الربا وما شابهها · فقال لقومه : « يا معشر قريش ! لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيباً لا يدخل فيه مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد »

وكلهم قرشى جاهلى من طبقة السادة وأصحاب المال

فحين نقول ان خالدا كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه الى تلك الخلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التى لا غلو فيها من هنا أو هناك ، حتى نرى دلائل الزيادة فى خليقة من تلك الخلائق ، فذاك اذن خاصته التى يتميز بها بين قرنائه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الاجمال

ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع انسانى وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الاقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة الى ما بعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقال لأبى العباس السفاح: ان المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التى نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبى ربيعة · فقديما كانت الفروسية

والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الاسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية فى عهد الجاهلية، فصنع للاسلام وصنع الاسلام له الأعاجيب ، وكان مقياس العبقرية العربية فى عهدين متقابلين



نشأة خالد وإسلامه

نشأة خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة أخوة من الذكور وقيل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور وأناث ، ومنهم أختان

وقد تقدم اجمال القول فى شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة . أما أبوه الوليد فقد كان الرأس بين الرءوس والزعيم بين الزعماء ، وكانت له فى بعض نواحى خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التى تجلت بعد ذلك فى عبقرية ولده العظيم

كان أغنى أبناء زمانه فى صنوف الثراء المعروفة بينهم كافة : الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض ، والخدم والجوارى والعبيد ، وسمى من أجل ذلك بالوحيد ، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش

وهو الذى قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر : « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا » .

ويروى سفيان الثورى أنه كان يملك ألف ألف دينار ، ويروى ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال

ولكبريائه فى جوده أو جوده فى كبريائه كان ينهى أن توقد نار غير ناره فى منى لاطعام الحجيج

وكان يأنف لنفسه فى الجاهلية أن يرى سكران على اباحة الخمر وشيوعها فى تلك الايام ، فانتهى عنها بغير ناه ، وقيل انه قطع يد السارق على سبيل القصاص.

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول والاقدام : ضربة من ضرباته في موقف اللبس والتردد ترينا فيه أبا خالد قبل أن يعرف العالم ضربات خالد ، وذاك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيرا لتلك الحرمة التي كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلها بعضهم حفاة الاقدام ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان • فلما رأى وسواسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الاولى بيديه وهو يقول : « اللهم لم ترع • اللهم لا نريد الا الخير » ومضى فى أثره الهادمون غير متهيبين

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبى جهل أنه كان من أفقه الناس لمعانى الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب فى أيامه

« قام النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد يصلى والوليد ابن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبى صلى الله عليه وسلم لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم • فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن • والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى ••• ثم انصرف الى منزله »

فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم • فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه الى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ تزعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر منى فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

يسألهم ويجيبونه : كلا ، فى كل سؤال

حتى اعياهم أن يردوا كلامه فسألوه رأيه فى تفسير بلاغة القرآن ففكر ثم قال : « ما هو الا سحر يؤثر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين ... فذاك اذ يقول القرآن الكريم : « انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر »

واختلف المفسرون فى تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم الذى قيل انه نزل فيه

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعي وأن الوليد بن المغيرة يوصف به لأن أباه ادعاه بعد ثمانى عشرة من مولده

ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زنمة كان يعرف بها فى عنقه، وهى اللحمة المدلاة . ويخالفهم آخرون فيقولون ان الرجل الذى كان يعرف بهذه الزنمة هو الأخنس بن شريق ، وكان أصله من ثقيف وعداده فى زهرة

وفى رواية أنه عليه السلام سئل عن العتل الزنيم فقال انه هو الفاحش اللئيم ، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير

الا أن الذى يعنينا فيما نحن بصدده أن الوليد لم ينسب قط الى أحد غير أبيه المغيرة ، وأن المغيرة لم يكن بحاجة الى استلحاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزوم وقريش عامة ، وأن شبه الوليد ببنى المغيرة ظاهر حتى فى بعض الفروع البعيدة . فان عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة خالد بن الوليد وكان يشبهه أقرب الشبه كما يتفق فى أيامنا هذه كثيرا بين أبناء العمات والاخوال ، وأن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم حتى لقب بريحانة قريش وسمى بينهم بالوحيد

وعلى أية حال قد نشأ خالد فى بيت الوليد بن المغيرة وهو

سيد بني مخزوم ، وأحد الســادات المعدودين فى قريش ، وصاحب الكلمة التى يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح اليه من شرعة أو دين

اما أمه فهى لبابة بنت الحارث الهلالية،وهى أخت ميمونة أم المؤمنين زوج النبى عليه السلام ، وأخت لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس عمه ، وأخت أسماء بنت عميس التى تزوجها جعفر بن أبى طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم على ابن أبى طالب ، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من ذوى الأخطار ومقادير العشائر النابهين

وندر فى بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بخالد وذويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه

والأقوال في سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهى الى قول يمتنع فيه الخلاف • فمن المؤرخين من يقول انه مات وله من العمر ستون ســـنة • فاذا كان قد مات فى السنة الحادية والعشرين للهجرة فقد ولد اذن فى السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به أن خالدا كان صغير السن فى عام الفتح ـ فتح مكة ـ كما يفهم من تلقيب أبى سفيان له بالغلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه

فقد كان أبو سفيان وابن عباس يرقبــان عبور الكتائب والقبــائل فى يوم الفتح فكان خالد بن الوليد أول من مر فى بنى سليم • فسأل أبو ســـفيان : من هذا ؟ قال ابن عباس : هذا خالد بن الوليد • فعاد أبو سفيان يسأل وهو يخفى حنقه : الغلام ؟ قال ابن عباس : نعم ! كأنه لقب كان معروفا بين شيوخ قريش

والرجــل لا يقال له « غلام » وهو فى نحو الســـــادسة والاربعين • وقد يقال له ذلك وهو حــول الاربعين اذا كان

القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقي بحكم العادة والتردد على الأفواه • فاذا كان خالد بن الوليد يومئذ في نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فمولده على التقريب بين سنتي ثماني وعشرين وثلاثين قبل الهجرة

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير • وهي قصة المصارعة بينه وبين عمر بن الخطاب وهما غلامان وغلبته عمر وكسره ساقه في هذه المصارعة• وانما يتصارع الندان أو المتقاربان • وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ

فالتوفيق بين هذه الاقوال جميعا انما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلا عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلا عن سنة ثلاثين ، فيرجح اذن أن يكون مولده في نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة • ولا مانع اذن أن يصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى في الرابعة عشرة مثلا زميلا له في السادسة أو السابعة عشرة ، اذا كان مولودا للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان خالد ولا شك كذلك ، لانه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر ، اذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان ــ فرسان قريش ــ في وقعة أحد التي أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم • فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره

وقد أسلفنا أن بني مخزوم كان لهم في الجاهلية أمر القبة والأعنة ، فالقبة هي خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال • والأعنة هي الخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه « الوظيفة » الموكولة الى قبيلته بين بطون قريش جميعا هي آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه

وفى أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا فى تصــور ملامحه وسماته لقلة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهى فى الغــالب مفيضة فى وصف أولئك الابطال

تلك القصة هى ما أشرنا اليه من المشابهة بينه وبين عمر ابن الخطاب ، حتى كان أناس من ضـــعاف النظر يخلطون بينهما من قريب، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض

وخلاصتها أن علقمة بن علاثة لقى عمر بن الخطاب سحرا فقال له : مرحبا بك يا أبا سليمان ! • ثم دنا منه فلم يميزه مع دنوه وسماع صوته برد الســلام عليه ، فقال : عزلك ابن الخطاب ؟ فأجابه عمــــر : نعم • فمضى علقمة يقول : ما يشبع ، لا أشبع الله بطنه !

وأصبح عمر فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالداً : ماذا قال لك علقمة ! فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام • وكرر عمر السؤال ، فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئا • • • فقال علقمة كالموسع له من حرج : حلا أبا سليمان! ولم يفطن لغلطه حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث

ومن هنــا تفهم أن خالدا كان طويلا بائن الطول ، وأنه كان عظيم الجسم والهامة ، مهيب الطلعة يميل الى البياض

وغنى عن تواريخ المؤرخين ولا جدال أن خالدا قد تعلم فى صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروســية وشمائل الرئاسة ، ومن الصغائر العارضة التى زعم أناس أنها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب أنه صارعه كما تقدم فغلبه وكسر ساقه ، وهى صغيرة تنبىء عن دراية باكرة بفنـــون الصراع والكفاح ، ولكنها لو لم تذكر فى مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروســية على أنواعها وسرعته فى مأزق النزال الى مصــارعة أقرانه

ومبارزيه واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك
وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمدا في البادية،ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد • فقد جاء في بعض الاحاديث أن خالدا كان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الاعراب ويشتهونه ، وهو أغنى انسان في مكة أن يسيغ هذه الأكلة الاعرابية ، مع يساره وافتنان أهله في الاطعمة الحضرية

قال ابن عباس رواية عن خالد أنه دخل مع رسول الله على خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت الى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئا حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة ألا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه ان ذاقه • فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه • فسأله خالد : أحرام هو ؟ قال : لا • ولكنه طعام ليس في قومي فأجدني أعافه ••• قال خالد : فاجتررته الي • فأكلته ورسول الله ينظر !

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى في كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثة ، وعلى سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب في المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لأبناء الأعيان بمعيشة الترف واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة ، وهم أحرى بخدمة أنفسهم في مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد الحروب

وكان لخالد ولا ريب علم بالبادية العربية من غير هذا الطريق طريق الرياضة المقصودة ان صح ما رجحناه•فلعله سافر كثيرا في الجزيرة قبل الاسلام ، ولعله عرف في تلك الأسفار دروبها العصية التي كان يطرقها من العراق الى الحجاز ومن الحجاز الى اليمن ، ومن نجد الى الشام ، وبعضها

كان يعتسفه على عجل بغير أدلاء

ولم تكن بخالد ولا باخوته حاجة الى التجـارة لكسب العيش وتحصيل المال ، اذ كان أبوه عـلى تلك الثروة التى لا مزيد عليها فى البلاد العربية ، وكانت ثروته أشبه شىء فى عصرنا هذا بثروة المصـارف التى تعمل فى صفقات القروض والربا ومضاربات الاسعار • أما الثمرات والخضر فى مزارعه فلم تكن مما يحمل الى البـلاد القصنية للبيـع والشراء ، وآنما قصاراها أن تباع فى الحواضر الحجازية وما قاربها من البـوادى القادرة على شىء من الترف والمتعة ، ولاسيما فى أيام الاسواق والحجيج • ولهـذا فسر بعضهم وصف بنيه « بالشهود » فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبدا فى صحبته وجواره مفاخرة بهم وتنزيها لهم عن الكدح والتصرف فى شؤون المعاش • فان قضيت لأحدهم رحلة أو سياحة ففى غير هذه الاغراض أو فى غير حاجة ملحة الى الاتجار ، وانما هي الدربة والتمرس بالمصـاعب والانتفاع بخبرة السـياحة وآدابهـا ، وقد ينفقون فى ذلك خير ما يكسبون ، كما كان يصنع عمه « زاد الراكب » وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجاراة أحـد لهم فى الضيافة وبذل العطايا والهبات

وموضع الترجيح والاستنتاج هنا انما هو فى ارسـال خالد الى البادية قصدا لرياضة النفس والجسد على خشونة الأعراب وشدائد الميادين•فهذا ، وان جرت به عادة بعض الأشراف فى حواضر الحجاز ، لم يقطع به قول من الأقوال فى سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه « الشهود » عـلى احتمال الشهادة للمعنى الذى قدمناه

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة ، والذى لا موضع فيه لترجيح ولا اسـتنتاج ــ أن خالدا قد نشأ حيث نشأ فى الحاضرة أو البـادية مستعدا للخشونة مستطيعا لمعيشـة

الاعراب ، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد فى أوعر القفار وأعنف الحروب ، وكانت له ضـلاعة العصبيين الاقوياء المعهودين بين رجال السيف ، وهى ضلاعة يوشك أن تستمد من حماسة النفس وشـهامة القلب أضعاف ما تستمده من العضلات والأوصال

فلم تعفه العبقرية من ضريبتها التى لا مناص من أدائها ، وآية ذلك أنه مات على فراشه فى نحو الخامسة والخمسين ، وليست هى بالسن الغالبـة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة أخرى

واذا تجاوزنا هذه المظنة ، وهى كافية ، ألفينا فى تراجم الأسرة كلها ما ينبىء عن عوارض الأسر التى تهيئها الأقدار لانجاب العباقرة فى شتى المواهب والمزايا

فهذه الأسر الغريبة تكثر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس فى تركيب الأعصاب خاصة ، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللهـا وتمعن بهم مخالفاتها وعنـاصر شذوذها حتى تسلمهم الى الاختـلال والاضطراب ، كأنهم ضحايا الأسرة كلها فى سبيل انجاب العبقرية منها

وكانت هذه العوارض مشاهدة فى أسرة خالد وفى اخوته على التخصيص . فذكر كتاب الاستيعاب فى أسماء الاصحاب « أن الوليد بن الوليد كان يروع فى منامه مثل حديث مالك سواء فى قصة خالد » . وعن مسند ابن أبى شيبة أن خالد ابن الوليد كان يفزع فى نومه فشكا ذلك الى النبى عليـه السلام فقال له : « ان عفريتا من الجن يكيدك »

وبذلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى فى شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الاخـوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المغيرة

وعمارة هذا هو صاحب عمرو بن العاص فى رحلة الحبشة

رسولين الى النجاشى لتسليم المسلمين بها الى قريش

وكان مولعا بالخمر والغزل وسيما محببا الى النســـاء ، فلما كان بالسفينة مع عمرو وامرأته شرب وانتشى ونظر الى امرأة عمرو نظرة اشتهاء ، ثم هم بتقبيلها بل أوما إليها أن تقبله فى قول صريح • فقال لها عمرو متقيا ما يكون من فتى سكران عارم الأهواء بين الماء والسماء : قبلى ابن عمك ! فقبلته • فلم يزد ذلك عمارة الا اغراء بالمراودة وجرأة على القحة ، ولمح عمرا على حافة السفينة وهو فى ســـكرة من سكراته فدفع به الى الماء يظنه غير قادر عـلى السباحة كما يغلب على أبناء البادية ، وأدهى من ذلك أنه قال لعمرو وقد رآه يسبح الى السفينة وينجو من الغرق : أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحسن السباحة ما فعلت ! فاذا هو قد جمع سوء النية بحياته الى سوء النيـة بعرضه !! وكظمها عمرو حتى تمكن من الكيد له عنـــد النجاشى لاجترائه على حرمة ومعاشرته بعض زوجاته، فأرسله النجاشى فى العراء مخبولا يعيش عيش الأوابد ، حتى مات

والقصاصون الذين سردوا لنا أنباء هذه المأساة يتهمون سواحر النجاشى بالكيد الذى أصاب عمارة بالخبال والهيام بين أوابد الآجام • ولكننا نحسب أن سواحر النجاشى براء من هذه التهمة الخرافية، لأن عملهن فيها غير لازم وغير مفهوم اذ كانت عوارض الخبال ظاهرة من كل حركة وكل كلمة وكل نزوة سردها لنا أولئك القصاص ودلوا على سوابقها ونظائرها قبل رحلة الحبشة وقبـل وقيعة عمرو بن العاص • وأكبر الظن فيما نراه اليوم على ضوء المشاهدات الحديثة أن المسكين قد اشـــتدت به عوارض الأسرة بأسرها فكان ضحيتهـــا المضروبة عليها ، فى سبيل الشرف الذى غنمتـه بعبقرية خالد ، وهو شرف عظيم

وقد نلمح عوارض الأسرة هذه فى أعظم أفراد الأسرة كما نلمحها فى هذا المسكين الذى ابتلى بالثمن الفادح والضحية الكبرى . فخالد بن الوليد ـ شرف بنى المغيرة ـ لم يفتنه الميل الى المرأة كما فتن أخاه ، ولم يصرفه قط عن عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن أبى بكر الصديق فى صدد الزواج المعجل فى غير حينه ، فسبى امرأة مالك بن نويرة ، وتزوج خلال حرب اليمامة وهو بميدان القتال ، وسبى ابنة الجودى فى دومة الجندل ، وقيل انه فقد أربعين ولدا فى طاعون الشام وهو بقيد الحياة لما يجاوز الخمسين بكثير

وتلك فى جملتها شواهد العوارض التى يقرر النفسانيون المحدثون أنها سمات العبقرية فى منابتها ، ومنابتها هى الأسر التى تنجبها وتبذل أثمانها قبل أن تنعم بمجدها وفخارها

وكما ظهرت هذه العوارض فى لون من ألوانها على أخيه عمارة ظهرت فى بعض ألوانها الاخرى على أخيه الوليد الذى كان مثله يراع فى رقاده

فهذا الأخ الكريم كان مع جيش المشركين فى وقعة بدر فأسره المسلمون ، وطال الكلام فى فدائه لغناه وعداوة أهله للاسلام ، فطلب آسره أربعة آلاف درهم ، وأوصى النبى الا يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد وهى درع فضفاضة وسيف وبيضة . وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك فى أسر المسلمين . فلما تم فداؤه وذهب الى أهله أعلن اسلامه بينهم وهم كارهون ، وعجب المشركون لأمره فسألوه : هلا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ فقال : كرهت أن يظن بى أننى جزعت من الاسار ... وصبر على التعذيب

والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبى مشيا على قدميه !

هذه أيضا نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية التى تأبى لخلائقها الا أن تحير الناس وأن ترد عليهم من مورد التفاوت والاغراب والمخالفة للمألوف

وهى فى أطوارها المتباينة منجم العبقرية الذى لا مراء فيه ، ومعدن البطولة التي تكتب لصاحبها وهو فى الاصلاب

فها هنا نشأة بطل عبقرى مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولا يشك فيها ، وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء والنعمة والبأساء ، ويكاد الصدق والاشاعة معا يتوافيان الى دلالة واحدة فى تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكلة الضب التى سبق ذكرها واحدة ا• وغيرها أكلات مسمومات يبدو لنا أنها مخترعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شىء : وهو اشتهار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التى يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك • ففى اليواقيت للقطب الشعرانى أنه حاصر قوما من الكفار فى حصن لهم فقالوا : تزعم أن دين الاسلام حق ؟ فارنا آية لنسلم • فقال احملوا الى السم القاتل ، فأتوه به فأخذه وقال : بسم الله ، وشربه فلم يضره ، وتردد مثل ذلك فى كتاب الاصابة فروى عن مصادر شتى أنه لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه فى راحته ثم سمى وشربه ، ولم يؤثر فيه

وقد سمعنا نيتشه ــ بشير السوبرمان فى العصر الحديث ــ يقول : ان السم الذى لا يميتنى يزيدنى قوة !

فهذه بنية بطل نشأت للمجد على هذا الغرار

إسلامه

كان اسلام خالد ضربا من التسليم

كان ضربا من التسليم بمعناه « العسكرى » المصطلح عليه فى عرف القادة ورجال الكفاح

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر والنصر والهزيمة ، الخبير بموضع الاقدام وموضع الاحجام ، المقاتل والقتال شجاعة ، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل ، ولا الجازع المنخذل . بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادى اليقين بالخبرة ، يوم أسلم وسلم الى معسكر الدين الجديد. كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه الا الله ، وكأنه كان يقول فى قرارة ضميره : أيهزمنى أحد وليس له مدد من النبوة ؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من السماء ؟

فبلغ نهاية الايمان بنفسه يوم بلغ بداية الايمان بالله

□

وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم أن يحاربوا حربهم الى نهايتها ، لأن الصراع بين الجاهلية والاسلام لم يكن الا صراعا لهم قبل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على التعميم

وكان معسكرهم أولى المعسكرات أن يصمد الى موقف الحسم من النضال بين الفريقين ، لأن بلاءه بادبار الجاهلية أكبر من كل بلاء ، وموقفه أمام الاسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده ، وعزة « النظام » الاجتماعى كله كما قررته الجاهلية أحقابا بعد أحقاب ، لأنه النظام الذى به يقومون وبهم يقوم

وقد أبلى أبوه فى هذا الصراع قصارى ما فى وسعه من بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تضيق به الفصول ، ولكن اشارة واحدة فيه تغنى عن بيان طويل ، وصفحة موجزة من صفحاته تغنى عن الاطناب فى القال والقيل

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها فى حرب الاسلام أن نقول انه قد هان عليه فى هذا السبيل أن يبذل العزيزين الولد والمال

ففى بداءة الدعوة المحمدية سعى وقومه الى عم النبى ابى طالب ليسلمهم محمدا أو يتخلى عنه ، وله بديلا منه — عمارة بن الوليد . . . وقد وصفوه بأنه أنهد الفتيان واشعرهم وأجملهم فى قريش

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى الى النبى فيمن سعى اليه من سراة قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة الأحزاب « ولا تطع الكافرين والمنافقين »

وبمقياس هذا البذل السخى فى سبيل الدين القديم تقاس كراهة الرجل للدين الجديد ، وهى كراهة الهرم التى تبقىَ الى الموت ، لأنه فوجىء بالاسلام وهو يقارب الثمانين وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين .

ب

وكان خالد فتى ناشئا يوم ظهر النبى بالدعوة الجديدة ، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون ، وزاد على النفرة لهبا من حمية صباه ، وتحفزا فتيا يسبق به أباه

فما هو الا أن بلغ مبلغ الزعامة فى القتال حتى تجرد لها

بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة ، ولم تنقض سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة فى وقعة أحد المشهورة ، وتولى الهجمة التى مالت بكفة النصر من جانب المسلمين الى جانب المشركين

وذلك أن النبى عليه السلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فان رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وان رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » . فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين ، خالفت كثرة الرماة وصاية النبى وتصايحوا بينهم « ما مقامنا ها هنا وقد انهزم المشركون ؟ » فكانت هي الغرة التى اهتبلها خالد ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه ، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين ، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضا من العجلة والدهش ، وشاع أن عليه السلام قتل فى المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار ، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان أن أبا بكر وعمر من القتلى ، وصاح بين الصفوف : « يوم بيوم بدر والحرب سجال »

واشترك خالد فى وقعة أخرى هى وقعة الأحزاب ، أو الخندق ، فكانت هى أيضا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة على بن أبى طالب ووقيعة بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التى عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسا من اقتحام الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة ، وفى هذه الغزوة يقول القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم

اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ... »

وقد كان خالد فى هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقا يقحم منه الخيل فأعياه وفشل عمرو بن ود حين حاول العبور من احدى نواحيه . فلما حبطت حملة عمرو وقتله على بن أبى طالب ، بات المشركون ليلتهم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصباح ، فكان خالد هو الموكل بالنبى عليه السلام فى كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب ، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويا من الليل ، الى أن تحاجز الفريقان ورجع المشركون وانصرف المسلمون الى قبة النبى ، فارتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة ، وكاد أن يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه . ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة ، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقة الجيش فى مائتى فارس ردءا للجيش كله ، مخافة أن يتعقبه المسلمون

□

وتصدى خالد مرة أخرى للنبى عليه السلام فى سنة الحديبية وهو فى طريقه الى مكة . وكان النبى قد خرج اليها معتمرا فى نحو الف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحا غير السيوف فى القرب . فأوجس المشركون خيفة

ان يكون قدومه الى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وندبوا خالدا فى مائتى فارس للقائه قبل بلوغ مكة . فدنا خالد حتى نظر الى أصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عباد ابن بشر فتقدم فى خيله وأقام بازائه وصف من ورائهم رجاله ، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه فعلت هنا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور ، وقال خالد يصف ذلك بعد اسلامه : « هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما فى انفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا ، وقلت الرجل ممنوع »

الا أنه مع هذا بقى على لدده فى خصومة الاسلام ومعاندة نبيه دون الاصغاء له والنظر اليه . فلما صالح النبى قريشا ودخل مكة فى عمرة القضية كره خالد أن يشهد دخوله ، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معفى النظر من رؤية شىء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حربه

***

كذلك كانت كراهة خالد للاسلام بعد كراهة أبيه

ومن وثباته هذه ، ولجاجه ذاك ، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التى هى أقرب الى المبارزة والمناجزة منها الى المقت والضغينة ، لأنها لا تعنى صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف

عليه ، كأنه زميل المبارزة اللازم لاتمام الصراع واذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه

وهذه الحرارة حركة جياشة فى النفس وليست كذلك الموات الذى تنقبض عليه النفس فى الشيخوخة الفانية ، ولا كذلك الضغن الذى يتغذى بقيحه المخزون فى طبيعة منغولة معدومة الخير والنجدة

مثل هذه الحركة الجياشة فى النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع الآتى فى واديه المحيط بجانبيه ، يظل متدفعا آتيا ما بقى فى الوادى وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه . ولكنه الى أمد لا محالة ، لأنه سينتهى الى مفترق الوادى فلا يجيش ولا يتدفع ، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع . وسيكون طريقه مع الوادى المفترق غير طريقه مع الوادى المحصور

والوادى هنا قد افترق فى مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد غير قريب ، وان لم ينته بعد الى غاية المفترق فى الارض البراح

افترق الوادى قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية. ومعسكر الاسلام ، وأصبح فى معسكر الاسلام أخوان حبيبان الى خالد ، وهما الوليد وهشام

وافترق قليلا يوم أصغى أبوه الى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذى أرابهم وأشجاهم ، فحسبوه قد صبأ عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع فى قلبه أنه وحى السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذى يفرق بين الرجل وزوجه والوالد وبنيه والسيد ومولاه !

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينة المسلمين فى طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة ، وهجس فى خاطره أن يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن

الغدر والغيلة ، ونسرى فى روعه أن لمحمد لسرا وان الرجل لممنوع

وكان لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع واقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء ، فاذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية ، واذا بصلح الحديبية يلقى السلاح من الأيدى سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال ، ولا سورة من غضب ولا جذوة من غيظ مثار

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول

وتهيأ الجو للسؤال : فيم هذا العداء والنضال ؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج اليها ؟ أم من أجل العصبة القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين ؟ أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره ؟

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين ؟

ومن أين له تلك المهابة التى ترد عنه الأعين والأيدى من قريب ؟

ومن أين له ذلك العون الذى يدركه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فاذا هوناصل منها واذا هو الطارد الظافر وقد خيل اليهم أنه الطريد المخذول ؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع ؟ ومن أين للنبى بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع ؟

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد الى قومه يقول : « والله يا معشر قريش ! جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى عظمته فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد بين

اصحابه ، وقد رأيت قوما لا يسلمونه بشيء أبدا فانظروا رأيكم فانه عرض عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فانى لكم ناصح ، مع انى أخاف الا تنصروا عليه »

ولقد رأوه بعد ذلك فى عمرة القضية لا يتوضأ وضوءا الا كاد المسلمون يقتتلون عليه ، واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر اليه ، ورأوهم فى نظامهم ومودتهم وصدق ايمانهم وخالص نياتهم ، فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا فى الزراية بهم والاعراض عنهم ، وانقلبوا الى أنفسهم فاذا هم مرتابون فى الغد متدابرون فى المقصد ، منهزمون وهم الأكثرون ، محجمون وهم المتربصون. فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير ، وفرضت هذه المراجعة فرضا على كل ذى بصر بالقيادة فى معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال ، فاذا بالرجلين المفطورين على توجيه الوجوه قد انتهيا الى راى فى مصير المعركة بين الجاهلية والاسلام فى ساعة واحدة ، وعلما أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض الهزيمة ، وهما عبقريا قريش فى أصول القيادة على تباين السن والمذهب والمزاج : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وفى تلك الآونة التى يشتد فيها الجذب والدفع بين الانسان وقرارة ضميره وتجب فيها الموازنة وجوبا على كل ضليع بها قادر عليها ، لم يترك خالد لنفسه ولم يلبث أن جاءته الدعوة التى تنصره على عناده وتخرجه من تردده ، وتستدعى منه البت العاجل بجوابه، وتمسح الغضاضة التى لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره

. . .

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى فيها عن جواب . . .

قال أخوه الوليد : « . . . اما بعد فانى لم ار اعجب من

ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد ؟ »

ثم مضى يقول : سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ! فقلت : يأتى الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمناه على غيره

فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة »

تلك كانت هى الدعوة التى جاءت فى أوانها

وكان اسلام خالد هو الجواب

فهى مراحله الطبيعية التى لا بد له من عبورها بين الجاهلية والاسلام : لم يكن طبيعيا أن يلبى أول دعوة وهو هو فى قريش صاحب معقلها المنيع

ولم يكن طبيعيا ان يلبى الدعوة فى وطيس الحرب ومحتدم العداء

ولم يكن طبيعيا أن يسكن هنيهة الى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءته الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكون الاسلام جوابه المنظور

فهو قد انتقل من الاصرار ، الى القتال ، الى الموادعة ، الى الموازنة ، الى الترجيح ، الى الاجابة ، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هى مكان العجب وهى الأمر المخالف لطبائع الأمور

وقد أسلفنا أن الاسلام كان فى أمر خالد ضربا من التسليم ، فنعيد هنا أنه تسليم القائد فى معركة نفسية وليس بتسليم القائد فى معركة حسية وكفى ، ولهذا عناه أن يستغفر له النبى ربه عن ماضيه ، ولم يكن قصاراه ان يرحب به النبى

ويسلكه بين صحابته ومريديه . فقال : يا رسول الله ! قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق فادع الله أن يغفرها لى

فأجابه النبى عليه السلام : ان الاسلام يجب ما كان قبله

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول : يا رسول الله ، وعلى ذلك !

فدعا النبى ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك !

فرضى خالد واستراح

ولا يكون هذا الا تسليم القلب نفض عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح

واحرى بنا أن نرجع الى كلام خالد لبيان تاريخ اسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التى كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبى فى المدينة ليسلم على يديه ، فانه أجمل ذلك كله اجمالا يفصح عن تلك الأطوار النفسية التى ساورته وان لم يقصد الى الافصاح عنها ، ولعل صدورها منه على البديهة أبين لها وأقرب الى توكيدها من الشرح المقصود

قال : « لما أراد الله بى من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى حب الاسلام وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن أشهده الا وانصرف وانى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمدا سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديبية خرجت فى خيل المشركين فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه بعسفان ، فقمت وراءه وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر اماما ، فهممنا أن نغير عليه ثم لم

يعزم لنا . وكان فيه خيرة . فاطلع على ما فى انفسـنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقعا وقلت : الرجل ممنوع ! وافترقنا وعدل على سنن خيلنا ، فأخذ ذات اليمين ، فلمـا صـالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ أين المذهب ؟ الى النجاشى ؟ فقد اتبع محمدا واصحابه آمنون عنده . فأخرج الى هرقل ؟ فاخرج من دينى الى نصرانية أو يهودية . أفاقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟

« وبينما انا كذلك اذ دخل رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى عمرة القضية ، وتغيبت فلم اشهد دخوله ، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك العمرة ، فطلبنى فلم يجدنى . فكتب الى كتابا فاذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فانى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام يجهله أحد ؟ وقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ فقلت يأتى الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ؟ ولو كان جعل نكايتـه وحـده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقدمنـاه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة »

فلمـا جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبـة فى الاسلام ، وسرتنى مقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلد أخضر واسع . فقلت : ان هذه الرؤيا حق ! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرنها لابى بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذى هداك للاسلام ، والضيق الذى كنت فيه الشرك . فلما اجمعت الخروج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصاحب الى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت : أما

ترى يا ابا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيـــه ؟ انما نحن اكلة رأس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم . فلو قدمنا عليه فاتبعناه ؟ فان شرف محمد شرف لنا ، فأبى على أشد الاباء ، وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما تبعته أبدا ، فافترقنا. وقلت : هذا رجل موتور يطلب وترا . قتـــل ابوه واخوه ببدر . ولقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لى مثـــل ما قال صفوان . . . فقلت له : فاطو ما ذكرت لك . . . وخرجت الى منزلى فأمرت براحلتى تخرج الى الى أن ألقى عثمان بن أبى طلحة ، وهو صديق لى أذكر له ما أريد . ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما على وأنا راحـــل من ساعتى ؟ فذكرت له ما صار الأمر اليه ، وقلت : انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوا مما قلتـــه لصاحبيه ، فأسرع الاجابة . . . وادلجنـــا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج ـ على ثمانيـــة أميال من مكة ـ فغدونا حتى انتهينا الى الهدة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مرحبا بالقوم . قلنـــا : وبك . فقـــال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟ قال : فما الذى أخرجكم ؟ قلنا الدخول فى الاسلام واتباع محمـــد ، قال : وذاك الذى أقدمنى . فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا . فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقـــال : أسرع فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بقدومك فسر بقدومك وهو ينتظركم ، فأسرعت المشى ، فطلعت فما زال يبتسم الى حتى وقفت عليـــه ، فسلمت عليـــه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق . فقلت : انى أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله . فقال : الحمـــد لله الذى

هداك . قد كنت أرى لك عقلا ورجوت أن لا يسلمك الا لخير »

الى أن قال : « وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قدومنا فى صفر من سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحدا من أصحابه فيما حزبه »

□

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة الاولى التى حركت قلب خالد الى الايمان بالدين الجديد ، ونحسب انها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين فى طريقهم الى مكة قبيل صلح الحديبية . يوم ردته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون الى جوار البيت الحرام ، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئا بدعوة محمد وغلبة أصحابه على البلد الأمين ، ويوم تراءى العنت من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه واجداده ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير كما قال الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك وتقارب ما بينه وبين الاسلام ، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته النبى على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور

وفى تحقيق هذا التاريخ ـ تاريخ اسلامه ـ خلاف غير قليل ، ولكن التاريخ الذى جاء فى سرده المنسوب اليه أرجح التواريخ جميعا لأسباب كثيرة ، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب النفسانى الذى يقترن بغيره . فان الوقت المشار اليه آنفا لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد

الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والاسلام . ولن نجد وقتا هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذى تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ... وبعده قضى الأمر ولم يبق لمكة الا أن تفتح أبوابها طائعة لمن هجرته وهجرها تلك السنوات الثمان

وقد علم النبى عليه السلام جلية الأمر منذ قدم اليه الرفاق الثلاثة ، فقال لصحبه : رمتكم مكة بأفلاذ اكبادها ، وحق للمسلمين أن يحسبوا منذ تلك الساعة أن اولئك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين

فالواقع أن مكة قد آذنت بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ، فأصبحت « المدينة المفتوحة » التى نعرفها فى اصطلاح هذه الأيام ، وأصبحت قضية مغلقيها فى وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط

ويخطىء الكاتبون الذين يزعمون أنها فتحت بعد شهور لأنها اخذت على غرة وزحف عليها جيش المسلمين فى عشرة آلاف وأهلها معجلون عن الأهبة والدفاع

فان النبى عليه السلام انما زحف عليها لأن قريشا غدرت بعهدها وسطت على حلفائه من خزاعة . ثم أشفقت من القصاص فأوفدت أبا سفيان إلى النبى يستأمنه ويسأله مد العهد الذى ابرم بينهم فى صلح الحديبية ، فأبى النبى ولم يجبه ، وأحس المشركون منذ اللحظة الاولى ان المسلمين زاحفون عليهم لا محالة ، فلو أن قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة فى التأجيل والمراوغة ، ولكنه

التسليم الذى بدأ باسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت الى أجله المعلوم

□

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين ، وتقدم النبى صلوات الله عليه فى كتيبته الخضراء ، وتقدم سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد الى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذى وكل اليه ، ونهى النبى أصحابه عن القتال فيها فلم يحدث قط قتال الا من صوب خالد بن الوليد ، لأن صفوان بن أمية وسهيلا ابن عمر وعكرمة بن أبى جهل رصدوا للباب الذى وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش وأقلهم من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير ؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معا يرمون المسلمين عن قوس واحدة !

انه حارب فى صفوف الاسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب فى صفوف الاسلام جيوش الفرس والروم ، وحارب فى صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها ؟ وأين يلتقى بها ان فاته لقاؤها فى ذلك اليوم ؟ لقد لقيها اذن فى ساعتها التى لا ساعة بعدها ، وقال النبى حين سمع بضربته : ألم انه عن القتال ؟ قالوا : انه

خالد قوتل فقاتل ! فقال : « قضاء الله خير » ... ثم قال : « لا تغزى قريش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة »

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون

مع النبي

أحاط بالنبي عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والاقدار ، مختلفون في البيئات والأحساب ، مختلفون في الأمزجة والاخلاق ، مختلفون في ملكات العقول وضروب الكفايات، مختلفون في فهم الدين وبواعث الاسلام، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الانسان العظيم ، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته التي هو أصلح لها وأقدرعليها ، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله لهداية الامم وقيادة الرجال ، بل لقيادة القواد الذين يروضون الامم والرجال

وما من عظيم من هؤلاء العظماء الا كان تقدير النبي اياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس وسبره العميق لأغوار الطبائع والافكار ، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات في هذا الباب ، لأنه عليه السلام لم يكبره اكبار السياسي الذي يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد ، وانما أكبره لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير ، وسماه « سيف الله » وبينه وبين الوقائع التي استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات ، بل سماه سيف الله وهو قافل من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير،

ويحثون فى وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم: يا فرار ! يا فرار !... فررتم من سبيل الله !

لم يكبر النبى خالدا كما أكبر أبا سفيان تألفا له ورعيا لمكانه في قومه ، ولكنه أكبره للصفة التى سيوصف بها فى تاريخ الاسلام بعد اهتدائه اليه ببضع سنوات

أكبره لأنه « سيف من سيوف الله » والناس لا يرون الا الهزيمة والارتداد ، ولم يكن النبى موليه القيادة فى المعركة التى ارتد منها بجيش المسلمين ، فيقول قائل انه ينصر قائدا هو المسئول عن اختيـاره ، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره . ولكنه ولى آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة اخوانه فى الجيش ، فاختاروه بعد ذلك مجمعين

كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الاكليل من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضـع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين اذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه فى ظلام المحنة والبلاء

وقد صحب خالد النبى ثلاث سنوات ، وعهد اليه النبى فى كثير من الاعمال الصغيرة وأشركه فى بعض الاعمـال الكبيرة : ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بنى جذيمة، فما من هذه الاعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانىء والحاسد ولم ينظر اليه الناظر من وجهين متعادلين تارة الى جانب العذر وتارة الى جانب الملام ، ولو أنه رضى الله عنه قضى نحبه فى السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمى « سيف الله » وفيم استحق هذا اللقب الذى لا يعلوه لقب فى الاسلام ، ولكن النبى وحـده قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه ، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن

يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للاسلام جزيرة العرب ويضم اليها العراق والشام ... وهى الاعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الاسلام

وانما هو البصرالعلوى الذى يلمح هذهالقدرة فى معدنها حيث ينظر النـــاس فيرون خالدا مرتدا من غزوة مؤتة أو مأخوذا مع الخيل وهى تولى فى أول المعركة من ميدان حنين، أو صانعاً فى سرية بنى جذيمة ما يبرأ منه النبىعليهالسلام

ولهــذا ينبغى أن توزن هذه الاعمال بميزانها الصحيح لاقامة خالد نفسه فى مقامه الصـــحيح ، فهى ولا ريب من المعدن الذى نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام

١ ـ سرية مؤتة

وأول هذه الاعمال قد اشترك فيه متطوعا بعد اســلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مؤتة التى ســيرت الى البلقاء

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى عليه السلام أرســل وفدا الى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم الى الاسلام، فقتلوا جميعا وعدتهم خمسة عشر الا رئيسهم نجا من القتل وحده ولعلهم أبقوا عليه عمدا ليخبر بما رآه ، عــلى ديدن المنكلين فىابلاغ مثلاتهم الى من يهددونه بالتمثيلوالتنكيل

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى وهو فى الطريق

فأشفق عليه السلام من عقبى السكوت على كلتا الفعلتين وهو غير مأمون ... وعلم أن قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة ، ومنها المتربص للغدر متى قدر عليه والموهونالايمان الذى لا يصبر علىالاغراء والاستثارة، فاذا استضعف الغســانيون وجيران الغسانيين شأن النبى

وافلتوا من جـرائر فعلة كتلك الفعلة اللئيمة جزاهم ذلك عاجلا على اقتحام الصـــحراء للنقمة من المســلمين ، فتهب القبائل لنصرتهم فى طريقهم وتمدهم الدولة الرومانية بالمال والسلاح تقريرا لهيبتها فى عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأســـها ووهموا أنهم قادرون عليهـا ! اذ لا مطمع للدولة الرومانية فى مقاتلة المسلمين واخضاع الجزيرة بغير هـــذه الوسيلة ، ولا سبيل الى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعداتهم الكثيرة لمنازلة المسـلمين فى عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود ، وتســييرهم بحرا الى شــــواطىء الحجاز لا يغنيهم عن استعانة بأناس من العرب وأهل البادية ، وهم أولى أن يستعينوا على هـذا المطلب بأتباعهم الأقدمين فى تخوم الشام

فلم يجد عليه السلام مناصا من الثأر لاصحابه المقتولين ، وجرد لتأديب المعتدين جيشا صغيرا لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف ، وكان فى ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عهـدا بالاسلام ، فلم يتول خالد قيادته لانه كان على الأرجح أحدثهم عهدا بالدخـول فيه ، وتولاها زيد بن حارثة « فان أصيب فالرئيس جـعفر بن أبى طالب ، فان أصيب فعبد الله بن رواحة ، فان أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم »

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا الى حيث قتل الرســول فيدعوا القوم الى الاســـلام ، فان أجابوا والا فالقتـــال ، وأوصاهم : «ألا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا ولا متعزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء »

ولا شك أن هذا الجيش انما كان بالوصف العصرى «حملة تأديبية وبعثة استطلاع » يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل

هذه الغاية،ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولةالرومانية أو يفتح البلاد التى كانت يومئذ فى يديها

فمضى لهـذه الوجهة حتى نزل معانا وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن هرقلا قد عسكر بمآب فى مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء

وقد يقع فى الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها الى تخوم الدولة فى مدى الايام التى مضت من خروج جيش المسلمين الى بلوغهم أرض معان • وهو خاطر بعيـد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها فى مثل هذه السرعة ، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس الى القوة الاسلامية التى مهدوا للقائها ، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها

والأرجح أن هرقل انما كان فى جموعه هنالك فى زيارة الشكر التى نذر لله أن يؤديها اذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذى حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقـدس ، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس فى ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضـة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة فى تلك الزيارة التاريخية

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقـربة منهم ، وان الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيـد عمل غير مجد ولم يكن منظورا ولا مقصـودا عند مسـير الجيش من المدينة ، فرجع بعضـهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبى فيما يصنعون ، وغلبت حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم: « يا قوم ! والله ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبـون :

الشـهادة • وما نقاتل النــــاس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فانما هى آحدى الحسنيين : اما ظهور واما شهادة ! »

فاستمعوا اليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبـــل الإنتهاء الى مقصدهم الذى خرجوا منأجله وهو ابلاغ الدعوة الى قاتل الرسول النبوى وابراء الذمة اليهم قبل القصاص، ان وجب قصاص

فتقدموا من معان الى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم فى خدمة الرومان

واحتمى الأمير الغسانى منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان ينتظر فيها مددا أو أمرا من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على مزرعة فى جوار البـــلدة ، فاستـمات من بقى من جيش المسلمين ، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون ، لأننـا لم نسمع فى أخبـار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الاجابة عليها ، ولأن قائدا منهم أعجل عن طعامه ولم يذق القوت ساعات ، فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطة غير خطة الصمود للخطر والثبات فى وجهه مخافة المصاب الأكبر فى هذه الحالة : وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل ، وأحاط القوم بجعفر بن أبي طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين ، فأنحوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت يمينه ثم قطعت شماله ثم ضم اللواء الى عضديه ولبث يناضل عنه الى أن مات

ودعى ابن رواحة الى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق من لحم وقال له : « شدّ بهذا صلبك فانك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت » فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ، ثم سمع

الحطمة فى ناحيــة المعترك فألقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد :

يا نفس الا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقــد أعطيت   ان تفعلى فعلهما هــديت

فطفق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتـــل والمعركة فى أشدها

فما هى الا لحظة حتى دبر المسلمون آمر الرئاسة بوحي البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التى تهدى الى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها • واذا باللواء يأخذه فى تلك اللحظة ثابت بن أقرم من بنى العجلان وينـــادى فى أصحابه : « يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم » • قالوا : « أنت » • قال : « لا • ما أنا بفاعل » • فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فاذا هو يتولى القيادة فى حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع فى ذلك الحين

وخير ما يصنع فى ذلك الحين هو الارتداد المأمون

وهو أصــعب من النصر فى بعض المآزق • لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه • ولــكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف الموقفين • الا أن تكون له خبرة بالقيــادة تكافىء الرجحان فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه

وأول شىء ينبغى أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع فى روع عدوه أنه لا ينوى الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصد الى الحيلة

فصمد فى الميدان حتى المساء

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة الى الميسرة ونقل الميسرة الى الميمنة وجعل الساقة فى موضــع المقدمة

والمقدمة فى موضع الساقة ، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عنـد طلوع الصباح • فلما طلع الصباح على الفريقين اذا بكل طائفة من طوائف الغسانيين والروم ترى قبالتها وجوها غير الوجوه وأعلاما غير الاعلام ، واذا بالجلبة مع هذا الاختلاف فى الوجوه والأعلام توهم القوم أن مددا جديدا أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المـذاق بغير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشى بجيشه لم يتبعوه حـــذرا من الكمين وتوقعا للإحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد فى هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط فى غزواته الكبرى على كثرتها ، فاندقت فى يده تسعة سيوف ولم تصبر معـه الا صفيحة يمانية ، وكان هذا التراجع المحمى بشجاعة المستميت غطاء صالحا للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير • فقفل الى المدينة بسلام ، وعرف خالد منذ ذلك اليـــوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبى وهو سيف الله ، وعاد الناس يقولون مع النبى انهم الكرار باذن الله وليسوا بالفرار

وقد سمعنا فى عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة لأنهم نجحوا فى خطة أرتداد لا محيص منها • فتلك هى السنة النبـوية تسبق النظم العصرية الى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح فى ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح فى تقدمه وانتصاره • ولو أن خالدا ملكته فطرة المجـازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سـوء وتعرضت الدعوة الاسلامية لمحنة لا نعـرف مداها الآن • ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغســانيين • لان الجيش قد خرج من المدينة تأديبا لأناس متصلفين قتلوا رســـولا واحـــدا أو قتلوا وفدآ لا تجاوز عدته خمسة عشر • فاذا تورط هذا الجيش فى الزحف حتى اصطلم كله ولم يعد منه

احد ، فكيف يكون وقع هـذا التأديب المعكوس فى نفوس البادية المتحفزة أو فى نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين ؟ انه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة ، وانه ليثير من الفتن ومساوىء الظنون ما يصعب استدراكه فى سنين

ولكن الجيش قد عاد وأبلى فى أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التى حسبتها مرصدة له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثنى عشر قتيلا منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه ، فالسرية اذن قد نهضت بأمانتها ووقع فى نفوس المسلمين من فرط الثقة بباسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها • وهى مغالاة فى القوة والبأس خير من المغالاة فى الضعف والخور ، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التى تضع الأمور فى نصابها ، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس فى ثياب الاخفاق .

٢ ـ بنو جذيمة

وقد أثنى النبى على خالد فى مهمة لم ينـدبه لها ولم يرشحه لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأى المسلمين فيها

ولكنه لامه وبرىء من عمله حين أخطأ فى مهمة ندبه لها بعد فتح مكة وهى السرية التى قادها الى بنى جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم الى الاسلام

فبعد فتح مكة توجهت عنايته عليه السـلام الى تطهير البوادى المحيطة بها من عبادة الاصنام ، فأرسـل السرايا الى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها • ومنهـا سرية خالد الى بنى جذيمة فى نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين والانصار وبنى سليم • أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال

وكان بنو جذيمة « شر حى فى الجاهليـــة يسمون لعقة الدم ، ومن قتـــلاهم الفاكه بن المغيرة وأخوه عما خالد بن الوليد ، ووالد عبـد الرحمن بن عوف ، ومالك بن الشريد وأخوته الثلاثة من بنى سليم فى موطن واحد » وغير هؤلاء من قبائل شتى

فلما أقبـل عليهم خالد وعلموا أن بنى سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول · فسألهم أمسلمون أنتم ؟ فقيل ان بعضهمأجابه نعم ! وبعضهم أجابه : صبأنا! صبأنا ! أى تركنا عبادة الاصـــنام ، ثم سألهم : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهمفأخذنا السلاح ! فناداهم : ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا : فصاح بهمرجلمنهم يقال له جحدم: ويلكم يا بنى جذيمة ! انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا الأسار وما بعد الاسار الا ضرب الاعناق ، والله لا أضع سلاحى أبدا · فما زالوا به حتى نزع ســــلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون · فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم عـــلى السيف ، فأطاعه فى قتلهم بنو سليم ومن معه من الاعراب، وأنكر عليه الانصار والمهاجرون أنيقتل أحدا غير مأمور من النبى عليه السلام بالقتال · ثم انتهى الخبر الى النبى فرفع يديه الىالسماء وقال ثلاثا : « اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد » وبعث بعلى بن أبى طالب الى بنى جذيمة فودى دماءهم وما أصيب من أموالهم ··· قيل انه « كان يدى حتى ميلغة الكلب » ويسألهم : أبقى دم أو مال لم يود لكم ؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال « احتياطا لرسول الله »

وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت اليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه : هل أنكر عليه أحد ! قال نعم · قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر ، فاشتدت

مراجعتهما . وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال : أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى بنى حذيفة

ويعزى الى خالد أنه استند فى قتالهم الى قول عبد الله بن حذافة « ان رســول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الاسلام »

وقد عم النكير عـلى الحادث بين أجلاء الصحابة من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدا بقتل القوم عمدا ليـدرك ثأر عميه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجل من بنى أمية . وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجارا الى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بنى جذيمة قضى نحبه هنـاك يحملونه الى ورثته وأهله . فاعترضهم جذمى فى رهط من قبيلته يدعى خالد بن هشام وزعم أنه وارث المال وأحق به من غيره . فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال الى أهل الميت . فغضب وقاتلهم بالرهط الذى معه فقتـل عوفا والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبد الرحمن الى خالد بن هشام هذا فقتـله بثأر أبيه . وهمت قريش بغزو بنى جـذيمة لولا أن مشى بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال

ومن الاسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتـل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبى ذريعة الى شفاء ترة قديمة . فأدنى من ذلك الى القصــد فى فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع خالدا خاصة الى مثل هذا التصرف ، فان كانت هذه الدواعى وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهى تفسير لما حـدث وفيها الكفاية ، وان لم تكن قائمة ولا مفهومة فهنالك يتفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء

وقد كانت دواعى اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة فى مقتلة بنى جذيمة . فان البوادى كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقيعة فى تلك الآونة بعد تسليم مكة . فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة في العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبى وجمعه ، فاذا ارتاب خالد فى نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر وهم يلقونه بالسلاح فله فى ارتيابه وجه لا يخفى ، واذا أضيف الى ذلك تلجلج القوم فى اعلان اسلامهم والافضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس فى أشباه ذلك المقام

وقد يغنى الشعر والقصص في الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ وتسلسل الرواية ، فمن كلام أحد الوهبيين في خطاب بنى جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنهم لم يكونوا متفقين على الاسلام والمسالمة ، وذلك اذ يقول :

دعونا الى الاسلام والحق عامرا فما ذنبنا فى عامر اذ تولت
وما ذنبنا فى عامر لا أبا لهم لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الجذميين :

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب

وفي قصة رواها محمد بن اسحاق بن يسار ــ وهو من الثقات ــ شواهد على اصرار بنى جذيمة وعنادهم الى ما بعد الاسار والانذار ، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغانى حيث نقلت ببعض التصرف : « ان خالدا بن الوليد كان جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فسئل عن غزوته بنى جذيمة فقال : ان أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثت . فقال : تحدث . فقال : لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح . فقاتلناهم حتى كاد وجه الشمس يغيب، فمنحنا الله أكتافهم فتبعناهم نطلبهم ، فاذا بغلام له ذوائب

على فرس ذنوب في أخريات القوم ، فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه ، فقال : لا اله • فقبضت عنه الرمح ، فقال : الا اللات أحسنت أو أساءت • فهمسته همسة أذريته وقيذا ـ أى مشرفا على الموت ـ ثم أخذته أسيرا فشددته وثاقا ، ثم كلمته فلم يكلمنى واستخبرته فلم يخبرنى ، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة يسوق بهن المسلمون • فقال : أيا خالد ! قلت : ما تشاء ؟ قال : هل أنت واقفى على هؤلاء النسوة ، فأتيت على أصحابى ففعلت وفيهن جارية تدعى حبشية ، فقال لها ناولينى يدك ، فناولته يدها فى ثوبها • فقال : أسلمى حبيش قبل نفاد العيش ، فقالت : وأنت حييت عشرا أو تسعا وترا وثمانية تترى »

قال : « وتناشدا الاشعار حتى قتل وأقبلت الجارية ووضعت رأسه فى حجرها وجعلت ترشفه وتبكى ••• » الى آخر القصة فى الجزء السابع من الأغانى وهى على ظهور الاختراع فى بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بنى جذيمة من سرية خالد

فاذا صح مع هذا أن خالدا تلقى من عبد الله بن حذافة السهمى أمرا بقتال بنى جذيمة نقلا عن النبى عليه السلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة اسلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه ، وهى على أية حال رواية لا تغفل كل الاغفال فى صدد البحث عن أخبار هذه السرية

والجو كله بعد هذا وذاك ـ سواء فى البادية أو فى مكة ـ هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور ، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع والآراء وأن تستطار فيه دواعى الشر والنقمة ، وأن يتطرق اليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح

وعند خالد دوافع الطبع الى جانب دواعى اللبس واختلاط الآراء ، وهى الدوافع التى قد نعد منها حداثة السن فى

ذلك الحين ، ومنها أنه تنـــاول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال في الصحراء ، ويحدث للقائد في هـــذا الموقف كثيرا أن يفرق بين ضربين من التسليم : هما تسليم المراوغة والختل وتسليم الاذعان والنصيحة ، ولاسيما تسليم العدو المتهم المتردد الذي يحيد عن الصراحة ويفند أناس منه مقال أناس آخرين

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التي ينشأ عليها كل من نشأ في مثل بيئته من الجاهلية ، وتلك الشدة التي تثيره اليها أعصابه ويومىء اليها تفزعه في نومه ومشاركة اخوته في عوارضها الموروثة على نحو من الانحاء ، وهي ولا ريب تلك الشدة التي عناها عمر بن الخطاب حين قال : «ان في سيف خالد لرهقا » وهو من أعرف النـــاس به وأقربهم اليه ، وهي التي توقعها جحدم أخو بني جذيمة حين صـــاح بقومه محذرا اياهم من القاء السلاح : ويلكم يا بني جذيمة . انه خالد !... كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج الى تأويل بعيد

وندرت في تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هـــذه الفلتات ، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغي أن يقع بشير السلام

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبني جذيمة فجنح به شعوره الى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة اليهم ، من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام

فكل هذا أقرب الى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبي على دخل وسوء نية ، وهو الرجل الذي حارب أصدقاءه وأقرب الناس اليه على أبواب مكة ، وله ندحة عن حربهم لو تعمد اجتنابها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع الى صدق النية في اطاعة النبي عليه السلام

ومهما يلم اللائمون أو يعذر العاذرون في هذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأن الابقاء على خالد بعدها صواب ، لأن صواب الابقاء على خدمته بعد غزوة بني جذيمة قد ظهر أيما ظهور فيحروب الردةوحروب الفرس والروم

وذلك مثل من تربية النبي عليه السلام لأفذاذ الرجال

ويتجلى تمام هذا المثل باعطاء الرجال فرص المراجعة والاصلاح في أمر يشبه الأمر الذي اخطأوا فيه ، وموقف قريب من الموقف الذي عرضهم للملامة ، وهذا الذي توخاه عليه السلام حين أرسل خالدا دون غيره الى بني المصطلق ـ وهم من بني جذيمة ـ ليستخبر له خبرهم ويتبين الحق فيما بلغه عن ارتدادهم ، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الاسلام ، فندب عليه السلام خالدا « وأمره أن يثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما جاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالاسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره »

وهو مثل ينبيء عن كثير ، وقد ينبيء فيما ينبيء عنه أن خالدا لم يتعسف كل التعسف في شكه الأول ببنيجذيمة على اختلاف بيوتهم ، لان الشك فيهم ما زال يتكرر بعدذلك بشهور ، وما زال يدعو الى تلقيالاشاعة عنهم وايفاد الوفود اليهم مرتين للتمحيص والاستخبار

٣ ـ غزوة حنين

ولم تمض أيام معدودات على مقتلة بني جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبي في حادث من أكبر حوادث الاسلام وهو غزوة حنين

لمس هذه الثقة في غزوة حنين مرتين : مرة في اسناد قيادة

الخيل اليه على طليعة الجيش ، ومرة فى سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين

وحق خالد فى تلك الثقة انما يستبين من عرض الغزوة كلها لجلاء الاسباب التى أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين ، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد ... بل لعلها توحي الينا أن هزيمة خيله يومئذ انما كانت كصد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية ، أمام جارفة من الجوارف القوية ، تأخذ ما أمامها من انسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثائرون محنقون ، وعلموا يومئذ أنها الوقعة الفاصلة وأنه لا مطمع بعدها فى مكافحة النبى اذا تطاولت الايام على قيام دينه فى البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام . فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجشم ومشى بعضهم لبعض يقولون : «أن محمدا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا . فلنغزه قبل أن يغزونا » واستنفروا القبائل فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم بنو سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبى وهو رضيع

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النضرى وهو فتى جرىء فى نحو الثلاثين يجمع الى غطرسة الامارة وحمية الفروسية حدة الشباب ولدد الخصومة والعناد ... فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم اذا رأوا المسلمين « أن يكسروا جفون سيوفهم ثم يشدوا شدة رجل واحد » . فاما فوز واما فناء . وصفت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ثم الابل عليها النساء ثم صفت الغنم . ثم صفت النعم فى حراسة لئلا تفر والجيش مشتغل عنها

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم : ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ؟ قال : أردت أن أجعل

خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فسخر دريد برايه وقال له : رويعى ضأن والله ! وهل يرد المنهزم شيء ؟ انها ـ أى الحرب ـ ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، فرماه مالك بالخرف ولج فى عناده. ولمح فى بنى هوازن ميلا الى كلام دريد فجمح به غضبه العارم وأقسم « لتطيعنى يا معشر هوازن او لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ! »

فهى عزمة رجل مستميت لا يبالى ما يصنع بنفسه أو بقومه فى سبيل قهر المسلمين

ونمى الخبر الى النبى فخرج فى الفين من اهل مكة حديثى العهد بالاسلام وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة . وقيل انهم كانوا جميعا ثمانية آلاف

واعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعا فأعطوه ثلاثين أو أربعين درعا ـ وقيل مائة درع ـ بما يكفيها من السلاح ، واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فأعاره اياها وهو يقول : كانى انظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين

واخرج خالد على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سليم

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه الى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات انواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما . فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء عظيمة ، فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات انواط كما لهم ذات انواط . فقال رسول الله : (الله اكبر . قلتم ـ والذى نفسى بيده ـ كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا الها كما لهم آلهة) !

وكان فى الجيش كثير من امثال هؤلاء المسلمين المحدثين ، ومعهم فى ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون ، وكان فيهم ابو سفيان الذى قال حين راى بوادر الهزيمة : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! وفيهم كندة بن الحنبل الذى صرخ شامتا متعجلا : ألا قد بطل السحر اليوم ، وصرخ معه آخرون يقولون : اليوم ترجع العرب الى دين آبائها

وكان الغالب على جيش المسلمين فى خروجهم قلة الاكتراث بعدوهم . فقال ابو بكر الصديق : لن نغلب اليوم من قلة ! ونسبت هذه الكلمة الى غيره ، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء فى القرآن الكريم : « اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا »

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ! انى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا فاذا أنا بهوازن عن بكرة ابيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا الى حنين . فتبسم رسول الله وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله . ثم سأل من يحرسنا الليلة ؟ قال انس بن أبى مرثد : أنا يا رسول الله . فأمره عليه السلام أن يستقبل الشعب حتى يكون فى أعلاه ، وقال له : لا نغرن من قبلك الليلة

فلما أصبحوا سأل النبي : هل احسستم فارسكم ؟ يعنى ذلك الحارس المستطلع . قالوا : يا رسول الله ما أحسسنا . فجعل عليه السلام يصلى ويلتفت الى الشعب ، حتى اذا قضى صلاته قال : أبشروا فقد جاء فارسكم ! فجعل ينظر الى خلال الشجر فى الشعب واذا هو قد جاء حتى وقف وقال : انى انطلقت حتى اذا كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما

فنظرت فلم أر أحدا ، فسأله : هل نزلت الليلة ؟ قال لا . الا مصليا أو قاضي حاجة

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن اياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال : « غزونا مع رسول الله حنينا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عنى فما دريت ما صنع ، ثم نظرت الى القوم فاذا هم قد طلعوا من ثنيــة أخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله ، وارجع منهزما »

وحدث أبو عبد الرحمن الفهرى قال : « كنا مع رسول الله فى حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر »

وروى محمد بن اسحاق بسنده : « خرج مالك بن عوف بمن معه الى حنين فسبق رسول الله اليها فأعدوا وتهيأوا فى مضايق الوادى وأحنائه واقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ النــاس منهزمين لا يقبل أحد على أحد »

وفى روايات شتى أن كمينا من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة فى الوادى وقابلهم بنبــل كأنه الجراد المنتشر ، « وكانوا رماة ... لا يكاد يسقط لهم سهم » فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شيء

⌂

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها ، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى لأن الخيل فوجئت فى الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر ، فولت منهزمة

فى جفلة حيوانية معروفة فى أشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هى سبب الهزيمة التى أصيب بها الهند فانقلبت الفيلة وبالا عليهم وقضت وهى مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات الى الفرار ، ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقى الفرس من فيلتهم فى حرب المسلمين مثل هذا المصرع ومثل هذه الجفلة الحيوانية ، يوم تعمدها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى فى وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار « فصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت »

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول أن الطلقاء الحديثين فى الاسلام أدبروا منهزمين عمدا بعد الهجمة الأولى . فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضى من بعضهم لحنينهم الى الدين القديم ، وعلى كره من بعضهم لأنفتهم من غلبة الأعراب على قريش ، لولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل فى ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئهما فى الموعد المقدور

فأما الحركة التى جاءت من قبل المسلمين فهى بروز النبى عليه السلام بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف . فقد ثبت فى ذلك الهول الجارف ثباتا يجل عن الوصف وأخذ

زمام المعركة كلها فى يديه ليمضى وحده فى القتـــال كيفما تصير الأمور

وكان قد شهد المعركة على بغلتـــه دلدل أو الشهباء ، فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفعة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى : يا معشر الأنصار ! ثم التفت الى اليسار ونادى كذلك يا معشر الأنصار ! فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا ــ كما وصفهم شاهدو الموقف ــ عطفة الابل على أولادها ، واجتمع معهـــم حول رسول الله مئات فى لمحة عين

وتختلف الروايات فى وصف هـــذه الحركة المجيـــدة من مبداها ، فيقول بعضها أن الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقى وحده ، ويقول بعضها : بل بقى معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس والفضل ابنه وابو سفيان ابن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبى لهب وعبد الله ابن مسعود وقـــليلون لا يتجاوزون الاثنى عشر . وجعل رسول الله يقول :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عمـــه العبـــاس أن يصرخ فى الجيش : يا معشر الأنصار ! يا أهل السمرة ! يا أصحاب سورة البقرة ! يا بنى الخزرج !. وكان العباس رضى الله عنه جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة ... وقيل انه كان يقف على سلع وينادى غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية أميال

فلما جلجل صوته بهذا النداء اذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون : يا لبيك يا لبيك ! ويسرعون الى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهـــم ثلاثمائة أو يزيد فى لحظات ، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والاقبال بعد الفر والادبار ، فاذا الجيش بقضه وقضيضه يعدو الى

ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه . وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات ، ومنهن من لم تكن على صحة فى النظر كالعميصاء أم أنس بن مالك ، وكانت وهى حامل تحـزم وسطها ببرد لها وفى حزامها الخنجر لدفاع من يجترىء عليها

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التوائه فى الهجمة الأولى فلم يزل يقاتل حتى سقط مثقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله ، وهناك وجده النبى عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة ، فبارك له وواساه

أما الحركة التى جاءت من قبـل المشركين فأعانت على هزيمتهم فذلك أنهم قد غرتهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين . فاتفقت الحركتـان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى اجملناها أن الهزيمة فيهـا بعـد الهجمة الاولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وأنها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها ، لأن أسبابها كلها كانت من وراء تدبيره ومشيئته ، وهى كثيرة نجملها ما وسعنا الاجمال

فمنها أن الروح التى غلبت على جيش المسلمين فى أوائل المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث وان الروح التى غلبت على المشركين يومئـذ كانت روح استماتة وعنـاد مع تقارب العدد بين الجيشين

وربما رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبى عليـه السلام الى استعارة بعض الدروع والرماح

ومنهـا أن جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقـاء ، قد يبلغون الألفين وقد يزيدون ، وكانوا على دخل أو على ضعف يبيتون النية على خذلان النبى . فخذلوه وتبعهم الناس

ومنهـا أن جيش المشركين سبق المسلمين الى مواقعه فاختار وأحسن الاختيار وهجم فى الوقت الذى ارتضاه

ومنهـا أن المسلمـين كانوا يواجهـون الشمس عنـد الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيـه العيون على مواجهـة شعاعهـا ، فحيـل بينهم وبين التثبت والاحكام فى مطلع الصباح الى أن استوت الشمس فى السماء

ومنهـا أن استطلاع المسلمـين لم يكن على عادته من البراعة والتيقن والاسراع . فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبى عليه السلام مرات . ثم جاء ولم يخبر بشىء ، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه فأوقع بالخيـل وهى لا تحسب له اى حساب ، وهذا مع مهارة المشركين فى الرماية حتى قيل انهم لا يسقط لهم سهم

ومنها أن بنى سليم أصحاب الخيـل التى تولاها خالد كانوا على قرابة من هوازن ، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون : ارفعوا القتل عن بنى أمكم ! وكانوا مع هذا ضعاف الاسلام فسبقوا الى الردة بعد موت النبى عليه السلام ، وما زالوا فى موضع الظنة بعـد ذلك على عهد الخلفاء

فتقدير النبى عليه السلام لخالد بن الوليد انما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيـوش فى مؤتة وبنى جذيمة وحنين ، وكأنما هو تقويم الجوهرى الخبير للجوهر النفيس فى معدنه الخفى غير مصنوع ولا مصقول ، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يضفى عليه من جمال الصوغ والضياء

ونعود هنا فنقول : ان تقدير النبي عليه السلام خالدا ابن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه أو لما يرجى من قومه الأقوياء بنى مخزوم ، فانه عليه السلام لم يجامله فى وصفه الذى طابقته حوادث الأيام ، ولم يجامله حين قدم عليه فى القيادة ثلاثة من السابقين فى الاسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين ، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن بن عوف فغضب النبى عليه السلام وقال له معرضا : « يا خالد ! ذر أصحابى . لو كان لك أحد ذهبا فانفقته قيراطا قيراطا فى سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن »

انما هو سيد السادة ومربى الرجال والأبطال ، يقوم الأعمال بقيمتها وينزل العظماء فى منازلهم ، ولا يمنعه أداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار

□

وقد تولى خالد للنبى اعمالا اخرى فى سنوات حجبه الثلاث ، ولكن الاعمال التى اخترناها هى اكبر اعماله فى حياته عليه السلام ، وهى أقرب الاعمال الى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه ، ولكنه أريد لكل عمل صغير كما أريد لكل عمل كبير ، وكانت للنبى عليه السلام نظرة فى كل مهمة مقدورة ندبه اليها

فمن مهامه الصغيرة تسييره فى ثلاثين فارسا لهدم « العزى » بعد فتح مكة ببضعة أيام ، وهى الصنم الذى كان أبوه يتمسح به وينحر له الابل والغنم ، وكان سدنته من بطون بنى سليم الذين قاتلوا مع خالد فى مقاوم شتى ، وقد كان معبود القبائل التى لقيها المسلمون فى يوم حنين ، وأصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون أن ربهم كان

يشتو بها لحر تهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها ...
وظلت مخوفة الى ما بعد الاسلام . فيقول الكلبى « ان اللات
والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة
من صنيع ابليس وامره » وهى التى ارجف من ارجف من
المشركين أن القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها
ويجعلون منه قولهم « اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى،
تلك الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لترضى »

فهي مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وان سهلت من
الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى اليها فهدمها ،
وجاء فى بعض الأقاويل انه « لما انتهى اليها جرد سيفه
فخرجت اليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، فجعل
السادن يصيح بها :

« اعزى » اذا لم تقتلى المرء خالدا

فبوئى باثم عاجل او تنصرى

فاخذ خالدا « اقشعرار فى ظهره » وضربها بالسيف
فشقها . ثم لقى النبى فقال له : الحمد لله الذى أكرمنا بك
وانقذنا بك من الهلكة . لقد كنت ارى ابى يأتى العزى بخير
ماله من الابل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثا ثم
ينصرف الينا مسرورا ، ونظرت الى ما مات عليه ابى والى
ذلك الراى الذى كان يعاش فى فضله وكيف خدع حتى صار
يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ». فقال عليه
السلام : « ان هذا الأمر الى الله فمن يسره للهدى تيسر له
ومن يسره للضلالة كان فيها »

وكذلك بلغت العبرة الى خالد قبل أن تبلغ منه الى الناس

☐

ومن المهام التى ندب لها فى حياة النبى مهمة يمتزج فيها

الشك بالأمل والرفق بالشدة والترغيب بالترهيب ، لأنها بعثة الى أناس غلابين مجتمعى الرأى أولى عصبية وبأس وحنكة ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب فى معظم انحاء الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران

ارسله اليهم وامره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، فان استجابوا قبل منهم وان لم يفعلوا فله أن يقاتلهم . فخرج اليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد ويبصرونهم بفضائله واحكامه ، فاستجابوا ودخلوا فيما دعوا اليه

واقبل وفد من عظمائهم على النبى — بأمره عليه السلام — فقال حين رآهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل : يا رسول الله ! هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب . ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين اذا زجروا استقدموا ؟ واعادها ثلاثا وهم لا يجيبون . فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن عبد المدان وفيه شوس وخيلاء : نعم يا رسول الله ! نحن الذين اذا زجروا استقدموا ، وكررها أربعا . فقال النبى : لو أن خالدا لم يكتب لى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم . فانطلق ابن عبد المدان يقول : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا . قال : فمن حمدتم ؟ قالوا حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله !

قال : صدقتم . ثم سألهم : بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا متغضبين : لم نكن نطلب أحدا . قال : بلى ! كنتم تغلبون من قاتلكم . فعادوا يقولون : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم »

قال صدقتم ، وقفلوا الى ديارهم فارسل اليهم عمرو بن

حزم يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ويأخذ منهم الصدقات

وقد شهد خالد مع النبى عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاء واشتباك ، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك

وكانت غزوة الطائف تتمة لوقعة حنين ، لاذت بها القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها ، وجمعت من الميرة ما يكفيها الى السنة القابلة ، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنبل كأنه أسراب الطير ، وقتلوا وجرحوا وهم متمكنون فى أسوارهم ، فبرز خالد لهم يدعوهم إلى النزال ولا يجيبه احد . ثم صاح به عبد ياليل عظيم ثقيف : « لا ينزل منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعا حتى نموت عن آخرنا »

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة فى الحصن . فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد المحماة فأحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون : دعها لله والرحم ! فقال عليه السلام : أدعها لله والرحم ، واستشار نوفل بن معاوية الديلى فى أمرهم فأجابه : « يا رسول الله ! ثعلب فى جحر ان أقمت أخذته وان تركته لم يضرك »

وفى الطريق قسم النبى غنائم حنين قسمة لم ترض أناسا ، فغضب رجل من المنافقين وصاح فى حضرته : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! فاحمر وجهه عليه السلام

غضبا وقال له : ويحك من يعدل اذا لم أعدل ؟. ووثب خالد وعمر يستأذنانه فى ضرب عنقه فأبى وقال : « لا . لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ؟ فعاد النبى يقول : انى لم أؤمر أن انقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم ... »

اما غزوة تبوك فقد خرج لها النبى عليه السلام الى حدود الروم سنة تسع للهجرة فى أعظم جيش شهده المسلمون فى حياته . ومن ثم أمر خالدا أن يذهب الى دومة الجندل ليأتيه بالأكيدر أميرها ، لأنه كان فى وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عينا للروم وحربا للقوافل يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة . ومن خبرة النبى عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم أنه قال لخالد : ستجده يصيد البقر ! فكان كما قال

وقد ذهب خالد الى الدومة فى اربعمائة وعشرين فارسا فاقتحم الحصن واضطر من فيه الى التسليم ومنهم الأمير . وجاء به الى المدينة فصالحه النبى على الجزية وعاهده على الأمان

□

وثم بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ولم يندب لمثلها قط فى عهد النبى ولا عهود خلفائه ، وتلك بعثته الى بنى مراد وزبيد ومذحج باليمن يدعوهم الى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه

قيل انه مكث فيهم اشهرا يدعوهم فلا يجيبونه ، وانه عليه السلام بعث بعده على بن ابى طالب وأمره أن يقفل خالدا ومن معه فان أراد أحد أن يعقب معه تركه

ولا غرابة عندنا فى هذا الذى حدث ـ ان كان قد حدث

على الوجـه الذى ذكره الرواة ــ فان خالدا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبى سنين بعد سنين ، وانما هى سنوات قلائل لم يفرغ فيها الا بضعة أشهر من الغزوات والبعوث . وقد أم الناس بالحيرة ــ فى خلافة الصديق ــ فقرأ من سور شتى ، ثم سلم والتفت الى الناس معتذرا يقول : شغلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن !

ويجوز أن النبى أرسله فى هـذه البعثـة ليدربه على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويجوز انه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معديكرب ــ فارس زبيد ــ ندا له يكف من غربه ويلزمه التدبر فى عاقبة نكثه وانتقاضه

وفى تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارىء فى بعض وقائعها وأغراضها فيجوز أيضا ان البعثـة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق ، وأن الرواة قد فاتهـم فى هـذا الصدد شىء كثير أو قليل من التحقيق

لكنها كائنا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالهـا لو ندب الى عشر من أمثالها ــ لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه من البطولة وصدق البلاء . وليكونن بها أو بغيرها خطيبا يبين من منبر التاريخ ، وأن لم يحمله قط منبر التعليم

حروب الرِّدّة

لتفصيل الكلام فى حروب الردة مكان غير هذا المكان

لأننا نتناول منها فى هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم خصائصه ومزاياه . وندع ما عدا ذلك لمكانه من الشروح والمطولات

وقد رجعت حروب الردة ـ كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية ـ الى أسباب مختلفة ولم تنحصر فى سبب واحد، وربما كان من أسبابها ما خفى على المؤرخين ولا يزال خافيا علينا حتى الآن ، ولكننا نعتقد أن الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها

فمن أسباب حرب الردة تمرد القبائل القوية على قريش. وأقواها القبائل التى تنتمى الى ربيعة دون مضر. فانها كانت تتعصب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة ، وصرح بذلك طليحة النمرى حين لقى مسيلمة زعيم بنى حنيفة ومدعى النبوة فى اليمامة فقال : أشهد انك كذاب ... لكن كذاب ربيعة أحب الينا من كذاب مضر . وكان مسيلمة هذا يقول : انه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش « ولكن قريشا قوم لا يعدلون ! »

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من المنافسة بين مضر وربيعة ، فان المنافسة فى الأقربين أشد وأيقظ من المنافسة بين الأبعدين كما هو المعهود فى كل قبيل. فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة . وروى عن عيينة بن حصن مثلما روى عن طليحة النمرى اذ قال يؤيد المتنبىء طليحة بن خويلد :

«نبى من الحليفين أحب الينا من نبى من قريش» ويعنى بالحليفين بنى أسد وبنى غطفان

وكانت قريش تقابل مثل هذه النفرة بمثلها فى أيام خصومتها للنبى وثورتها عليه . فكان صفوان بن أمية مشركا فى وقعة حنين ، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن وحلفائها ، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها : «أسكت فضالله فاك ! أتبشرنى بظهور الأعراب ! والله لأن يربنى رجل من قريش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن »

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة . فما زال من دأب البادية فى كل زمان أن تنقم على الحاضرة سلطانها ونعمتها ، ولم يشذ عن هذه السنة الا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين ، وكانت تحتكم فى خصوماتها الى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها اذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون ، وأسرع بعضها الى تلبية الدعوة فحارب فى صفوف المسلمين

ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة ، فان هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر فى بلوغ مثل هذا المطلب الجليل

فما هو الا أن استقر الأمر لمحمد فى الحجاز وما حوله حتى اشرأبت الأعناق للاقتداء به وظن من ظن أنهم قادرون على ما قدر عليه وأن المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع وقيادة واتباع ، وقصرت عقولهم عن ادراك سر القوة الأصيلة التى هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم ، وهى أن دعوته مطلوبة لاصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة فى العالم كله وليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق

مجد مومٍوق . فنجم الدعاة فى حيـــاة النبى باليمن ونجد والبحرين لمجاراة الدعوة بالحجاز،وجاءت وفاته عليه السلام إثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان

ومن الأســـباب التى أثارت القبائل فريضة الزكاة التى فرضها الاسلام على كل مستطيع،فانها أثارتهم لضنهم بالمال وانفتهم من الاتاوة ، وخالفت ما ألفوه حتى من أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، لانهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر ممـــا يعطون ، وكانت الاتاوات التى يرضخون عنها أقل من المنـــح التى توزع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع أو الهبات

بل كان منهم من ضاق ذرعا بالفرائض فأســقطها الدعاة عنهم جميعا وأعفوهم من كل فريضة ، ومنهم من أنف من السجود فقال لهم طليحة الأسدى : « ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم ، فاذكروا الله قياما ، فان الرغوة فوق الصريح ! »

ويلحق بهذا وأشباهه أن الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد فى نفوس الاقصين من أعراب البادية ، ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية فى العبادة والمعيشة ، وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهم داهم بالمفــاجأة من قبلهم ، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم »

وليس أقرب الى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبى وشـــيوع الفتنة والاضــطراب عن ايمانهم وشمائلهم ، مع اغراء الدعاة وفرط الحنين الى القديم وهــو منهم جد قريب

□

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع

والنص الصريح : وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية : كل منها بما يوائمها وبما هي قادرة عليه

.. وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب أولياء الروم ، وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية ، فهؤلاء يدينون بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدع أو مدعية للنبوة ، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقيعة . أما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التي تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر ، ولم يجدوا حرجا من عقيدتهم أن يسمعوا الى المتنبئين والمتنبئات ، لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجا من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرضاها اتباع كتاب . فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت في التبشير بدينها العجيب مسلكا لا يستريح العقل الى تفسيره بغير تفسير واحد ، وهو انها كانت تعمل لغرض سياسي وباغراء دولة أجنبية ، ولا تعمل لغرض ديني ولا بدافع من عندها وعند ذويها

فسجاح هذه كانت من بني يربوع أقرب بطون بني تميم الى نفوذ فارس ، ثم تزوجت في أخوالها التغلبيين بالعراق ، ثم انحدرت من ثم الى أرض بني تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبي عليه السلام ، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره ، فلما دعت قومها الاولين بني يربوع الى هذا الدين طلبوا اليها — على ما يظهر — أن تؤلف بطون بني تميم جميعا الى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين . فلم يتفق بنو تميم على رأى . وتركتهم الى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على الاسلام ، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على غرض واحد وهو الزحف على الحجاز ، ولكنها رجعت الى قومها وهي تقول : « انها وجدته على الحق فتزوجته » وانه

سيؤدى لها نصف غلات اليمامة وقد استنجزته شطر هذا النصف قبل مرجعها الى بلادها

فلماذا خالفهـا بنو تميم ؟ ولمـاذا خالفها مسيلمة ؟ ولماذا انحدرت ثم عادت أن كان همها التبشير بدين جديد ؟ ولماذا هابها مسيلمة وأعطاها الجزية وهو يأنف أن يعطيها خليفـة المسلمين ويجرد لحربه جيشا قيل ان عدته أربعون الفا وقيل بل ستون ولن يقل عن عشرين الفا فى تقدير أحد من المؤرخين؟

كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل الا على وجه واحد ، وهو أنها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ، ومن ثم أصابت ما أصابت من الاخفاق أو النجاح

ويعزز ذلك انها لقيت فى رحلتها عملاء فارس جميعا من أبناء البوادى العراقية والنجدية ، وأنهـــا عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم

قال ابن الكلبى : «كانت عير كسرى تبذرق ــ أى تحرس ــ من المدائن حتى تدفع الى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع الى هوذة بن على الحنفى باليمامة ، فيبذرقها حتى يخرجهـا من أرض بنى حنيفة ، وتجعل لهم جعالة ، فتسير بها الى أن تبلغ اليمن»

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التى لا لغز فيها ولا تناقض بين اجزائها

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد عاملوها المعاملة الواجبة لمن يعتز بصولة الأكاسرة ويخلف المناذرة فى وقت واحد

فقد هدمت وقعة ذى قار ــ التى مر ذكرها بأول هـــذا الكتاب ــ هيبة الأكاسرة فى الجزيرة العربية

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة ــ ملوك الحيرة ــ الذين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم فى اخضاع البـادية

القريبة والبعيدة ، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل . فأرسل الأكاسرة أميرة تغلبية لتخلف المناذرة فى هذه المهمة القديمة

وكان اختيارها من بنى تغلب أدنى شىء الى المعقول والمنظور ، لانهم أعداء بنى بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم فى وقعة ذى قار

ثم كان تردد بنى تميم وبنى حنيفة فى معاملتها أدنى شىء كذلك الى المعقول والمنظور ، لانهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم ، فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على اغضاب فارس . وغاية ما فى وسعهم أن يصرفوا سجاح راضية ويقنعوها بأن الثورة على الاسلام حاصلة ، ويكون عملهم جميعا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح على كل تفسير سواه

بل نحن نخطر هذا فى أخلادنا فنفهم كيف اشتد التغلبيون فى حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون فى حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الاسلام وجيوش الأكاسرة على أثر حروب الردة ، فهى شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعد بداية . وكانت رحلة سجاح الى الجزيرة العربية هى أولى الطلائع فى حرب الأكاسرة والاسلام

□

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول : ان المدينة ومكة وجيرتهما كانت تقف وحدها فى وجه البادية العربية بأسرها ، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين فى هذه المعركة

وقد كانت حروب الردة طائفا من الشر لا شك فيه

ولكنها ولا ريب لم تكن شرا محضا خلوا من جانب المصلحة

والفائدة ، لأن هـــذه الحرب وحدت عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق ، فاجتمعت منهمـــا قوة تكافىء كل قوة في البادية على انفراد ، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدول الواقفة لهما بمرصد قريب

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والانصار خليقا أن يتشعب ويستفحل ، وكان الانصار فيمـــا بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعا صغارا في كل من الشيعتين ، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش ، فان بني هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم الى كلمة ، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق بينهم وبين بطون قريش الاخرى ، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين

فلما توفرت البادية للوثوب على المدينة أحس المسلمون جميعا أنهم فريق واحد ، مهدد بخطر واحد ، فاتفقوا بوحي البداهة التي لا موضع فيهـــا لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض ، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة الى الوفاق وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار

وغني عن القول أن خالد بن الوليد كان في وسط هـــذه الحومة بكل داع من دواعيـــه النفسية والعقليـــة . بداعي العقيدة الاسلامية ، وداعي العصبية القرشية ، وداعي النشأة الحضرية ، وداعي القيادة العسكرية ، التي قدمته الى طليعة المجاهدين في هذا الميدان

فشهد حروب الردة من أوائلها الى نهاياتها ، وقسمت له الحصة الكبرى في أهم وقائعها وأعصب أوقاتها ، ومنها وقعة واحدة ترجح بها جميعا وتعد من حروب الاسلام الحاسمة في صدر تاريخه ، وهي وقعة اليمامة التي انتصر فيها بعد هزيمة قائدين

وتنقسم أعمال خالد في حروب الردة الى قسمين : أحدهما

الذى اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما جاورها ، والآخر الذى استقل به أو استقل على الاصح بناحيته العسكرية ، وهو أعظم عمليه فى هذه الحروب

□

توفى النبى عليه السلام وجيش اسامة بن زيد فى الجرف من ارباض المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع برؤوسها. فعاد فريق منه الى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجىء مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن فى عقر داره خلال تلك الغاشية . فأبى أشد الاباء أن يخلف وصية للنبى أوصى بها فى مرض وفاته ، وقال قولته المأثورة : « والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو ان الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل امهات المؤمنين لأجهزن جيش اسامة » ونادى فى المسلمين : ليتم بعث اسامة ! الا لا يبقين بالمدينة احد من جند اسامة الا خرج الى عسكره بالجرف

وسار الجيش الى وجهته كما اراد

فخلت المدينة من الجند الا بضع مئات من رجال المهاجرين والانصار . ودرى أقرب المرتدين اليها بحالها من العزلة وقلة الحامية فزحفوا عليها وظنوا أنهم اذا هددوها وهى عزلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه رجع الخليفة عن عناده وقبل منهم ما ساوموه عليه ، وهو اقامة الفرائض كلها والاعفاء من الزكاة ... أو من الجزية كما سموها !

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة، وتركوا شطرا من جموعهم فى الربذة حيث تلتقى طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلا من المدينة ، وساروا بالشطر الآخر الى ذى حسا وذى القصة وهى أقرب محلة اليها .

ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالنـــاس فى بيوتهم ويتوسلون بهم الى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه . فأبى اباءه الذي لا ينثنى وقال : لو منعونى عناقا لجاهدتهم عليه

فقفلت الوفود الى جماعاتها ، وعلم الخليفة بقفولها،وأخذ فى التأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الايمان . فلم يدع شيئا قط يستعد به للخطـر المنتظر الا أعده فى أوانه ، وعلى الوجه الأمثل فى تلك الأحوال

فأقام كبار الصحابة على الابواب ، وجمع فى المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين ، وارسل العيون على الطرقات من كل سبيل ، فما هو الا أن جاءوه بنبأ القـوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه ، ودهم من كان منهم بذى القصة فذعروا لهذه البغتة التى لم تكن لهم على بال ، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم فى ذى حسا فصمدوا هناك للمقاومة ، وقيل أنهم تحيلوا على ابل المسلمين التى لم تروض للقتال فضربوها بالانحاء المنفوخة فى وجوهها فنفرت وولت مجفلة من حيث أتت . فأطمعهم ذلك فى الهجوم على المدينة ، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الاقل بعد هذه الهزيمة

الا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصما بالمدينة كما انتظروا . بل خرج بمن معه فى هزيع من الليل على تعبئة كاملة ، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة فلم يلبثوا قليلا حتى تفرقوا وارتدوا ، ولم تقم لهم بعدها قائمة فى هـــذه المحاولة الفاشلة . لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع ، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو على غرة بعد ما اعياهم أخـــذها وهى قليلة الحاميـــة مفتوحة الطريق

تلك كانت هجمة المرتدين الاولى على معقل الاسلام . ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الايمـــان وحزم التدبير

وحزم الوفاق ، وانخذل فيها المرتدون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث ، فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة الرأى وعزيمة الكلمة الواحدة ، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلاً لفاتهم طلاب ذلك ، لقلة الكلأ والماء الذى يكفيهم مجتمعين . فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم ، وعوضهم من قلة الجند رجحانا يقابلون به الكثرة وهى منحلة الوثاق

ومن عجائب الخليفة الصديق انه كان يعتصم بالايمان حتى يقال لم يدع مزيدا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدا للايمان

ففى هذه الفترة التى شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله الى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة ، وتمشى بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخبطون مضللون

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية فى جوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال .

ومضى رسوله « عدى بن حاتم الطائى » الى قومه بنى طيىء وهم يترددون : فريق يعصى الخليفة ويلحق بالمتنبىء الأسدى طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار. فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على أرهابهم مصير عبس وذبيان. وانذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قبل لهم بدفعه من تلك الأمداد التى تتدفق على المدينة أو يثوبوا الى الاسلام وايتاء الزكاة . فأصغوا اليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من اخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعدوه أن يدخلوا بهم جميعا فى زمرة جيش المسلمين .

الى هنا انتهت المرحلة الاولى التى اشترك فيها المسلمون جميعا بقيادة الخليفة لمدافعة المرتدين عن المدينة. وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيها الاعمال بين القادة فى شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش أسامة ، وهدأت سورة القيظ وبدأ الخريف ، واصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعوث الى المتنبئين فى مواطنهم، ليعجل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه

ففى أول هذه المرحلة نرى خالدا « بذى القصة » حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والانصار • ووجهته الى « بزاخة » من أرض بنى أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحلفاؤهم الى المتنبىء القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد

وربما كان الصحيح أن خالدا انما استقل فى أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكرى فى تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها • اذ كانت هذه الخطة متفقا عليها بينه وبين الخليفة ، وكان الخليفة اليقظان يامره بما يصطنع خطوة بعد خطوة ، وينبهه الى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته ، ويصحبه الى بداية طريقه

قال الخليفة وهو يودع الجيش : «أيها الناس ! سيروا على اسم الله وبركته ، فأميركم خالد بن الوليد الى أن ألقاكم • فانى خارج فيمن معى الى ناحية خيبر حتى ألاقيكم »

ثم خلا بخالد وأسر اليه أمرا ثم قال : « ••• عليك بتقوى الله وايثاره على سواه ، والجهاد فى سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فان معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم

فيماْ نزل بك ثم لا تخالفهم • فاذا دخلت أرض العـدو فكن بعيـــدا من الحملة فانى لا آمن عليك الجولة ، واســـتظهر بالزاد وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة،واحرص على الموت توهب لك الحيـــاة ، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منـــه ، واحترس من البيات فان فى العرب غرة ، وأقلل من الكلام واقبل من الناس علانيتهم وكلهم الى الله فى سريرتهم ، واذا أتيت دارا فاقحم • فان سمعت أذانا أو رأيت مصليا أمسك حتى تسالهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فان لم تسمع أذانا ولم تر مصليا شن الغارة ، فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس ••• واذا لقيت أســدا وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتـالهم ، فانه بلغنى أنهم رجعـوا بأسرهم ، فان كفاك الله الضاحية فامض الى أهل اليمامة • سر على بركة الله ! »

ولم يكن الخليفة على نية المسـير الى خيبر كما أعلن أمام الناس ، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش الى بزاخة نصا لمقاصد متعددة : منها أن يخيف بطون طيىء حين يقصدا اليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقيــة التردد التى تهجس في صدورهم ، ومنها أن يقنع طليحة بارســال من عنده من طيىء لنجدة اخوانهم والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه الى غير بزاخة ومنصرف عنها الى حين ، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا في قتال

وقد عمل خالد بهـــذه الخطة فمضى فى طريق بزاخة ثم عرج الى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيىء ، وهنـــاك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون

الطائية ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل

وقبل أن يستوى خالد فى طريقه الى بزاخة جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بنى أسد لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية . ولم يكن عدى ابن حاتم على رأى قومه فقال لخالد : لو ترك هـذا الدين أسرتى الأدنى فالأدنى من قومى لجاهدتهم عليه ، أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم ؟ فلم يشأ خالد أن يكره أناسا على حرب من يسالمونهم ولا يستحمسون فى قتالهم ، وقال لعدى : لا تخالف قومك ، وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط ، والله ما قيس بأوهن الشوكتين . امضوا الى أى القبيلتين أحببتم »

وأتم تعبئته للقتال وهو على الطريق ، فجعل القبائل على ميمنته والأنصار والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء

أما طليحة فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة ، فانه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم الى بزاخة ، وأعد العدة لكلتا الحالتين من غلبة وفرار ، فعزل أكثر النساء فى مكان أمين لئلا يقعن فى السبى اذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسا من أشد فتيان بنى أسد ليدرأوا الهجمة عنه ، كأنه كان يعلم أسلوب خالد في قتاله ... اذ كان وكده قبل كل وكد أن ينحى بالضربة المصمية على رئيس القوم فيفت فى أعضاد القوم جميعا بقتله أو اكراهه على الفرار . ولم يكن طليحة جبانا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره ، بل كان مشهورا بالشجاعة معروفا عنه أنه أقسم لا يدعوه أحد الى مبارزة الا أجابه ، ولكنه كان على شجاعته أميل الى الحذر والحيطة منه الى المجازفة والحماسة ، وكان فى هـذه الخصلة نقيض نده

الذى يصاوله وينازله بالسلاح والاخلاق ، فكان خالد أقرب الى المجازفة والحماسة منه الى الحذر والحيطة

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة . فقد كان جيشه يربى على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة ، مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحا فى دياره على خلاف جيش المسلمين الذى كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال فى الأودية والجبال

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التى تأتى فى ابانها وتدور برحى الحرب من طرف الى طرف فى ساعات معدودات

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت، وكروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة ، وانقضت هنيهة خيل فيها الى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بنى طيىء الى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيىء ويستدرج المرتدين اليها. فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلا : لا أعتصم بغير الله!

ثم عول على الكرة فى كبة الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه. فأرسل فرسه وترجل مقاتلا على قدميه ليملك الحركة حيث يشاء ويبعث القدوة فى قلوب صحبه، ونادى بالانصار كأنه ذكر موقف النبى يوم حنين : يا أنصار الله ! فلبوه مندفعين اليه ، وثاب أبناء القبائل الى مواضعهم فاستحر القتل فى الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعا واستقر هو فى « دثار الكهانة » يوهمهم أنه يتلقى الوحى أو ينتظر المدد من السماء .

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له ومرضاة لكبرياء القبيلة في أنفسهم ، فلما جد الجد أحبوا أن يروا لهذا الايمان علامة وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين : هل جاءك جبريل ؟

قال : لا . ثم رجع له مستعجلا وحي السماء صائحا به وقد نسي في غضبه أنه يخاطب على زعمه نبيا من الانبياء : لا أبالك ! أجاءك صاحبك ؟ قال : لا . فصاح به : حتى متى؟ قد والله بلغ منا . فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول وقال له نعم ! جاءني وأوحي الى « ان لك رحى كرحاه، وحديثا لا تنساه » ... فسخر منه عيينة وقال نعم ! هو حديث لا تنساه ... ونادى في قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وادبار أمره : انصرفوا يا بني فزارة ! انه لكذاب . وجعل طليحة يسألهم من حيرته : ما يهزمكم؟فأجابه أحدهم: أنا أحدثك ما يهزمنا ، انه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وانا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه »

وأدرك طليحة حذره . وكان قد أعد لهذا الحذر عدته ! فركب فرسه وأردف امرأته النوار وراءه ، ونجا بها وهو ينادى أتباعه : « من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل » . وما زال في فراره حتى لحق بالشام

□

وتعقب خالدفلول المرتدين ومن مالأهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم في « ظفر » حيث أحاطوا بسلمى أم زمل وهي كأمها من قبلها مضرب المثل في العزة والمنعة . كان يقال عن أمها « أعز من أم قرفة » لأنها تعلق في بيتها خمسين سيفا كل سيف منها لرجل من ذويها ، وقد سبيت هي في عهد النبي عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشةرضى الله عنها . فذهبت الى قومها مغضبة لتلك العزة التي انتهى بها عناد قومها الى الأسر والخدمة ، واستثارتحمية الرجال بهذه الغضبة التي تثير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع اليها

بواعث أخرى للغضب والثورة. فدار بين خالد وجيشها أحر قتال ، ووقفت هي على جمل مشهور تضرم النخوة فى قلوب جندها وترد الشجاعة الى من أدبر للفرار، ومضى اليوم وهي تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون . فجعل خالدمائة من الابل لمن يصيب الجمل . وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه ، وقيل انهم لم يصلوا اليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين

وقد تفرقت سرايا خالد فى أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو الى الاسلام

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأوليين : وهما الانذار والتغلب على الفتنة ، وبقيت مهمته الاخيرةوهي القصاص والتأديب ، ولعلهاكانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش . لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا فى التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم ولم يتورعوا عن مثلة من المثلات التى يتورع عنها المقاتل الكريم ، وأصابوا أولئك العزل المنفردين فى غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال . فكانت أوامر الخليفة الى خالد صريحة ألا ينى فى عقاب المعتدين « ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين الا قتله ونكل به غيره »

ولم يكن خالد فى مواقف الصرامة والبطش بحاجة الى توكيد وتشديد. فلم يقبل من المرتدين الا أن يأتوه «بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على المسلمين » . ومثل بهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم. وقاد رؤساءهم فى جوامع الحديد الى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء

وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف ، ولكن لا شك أنه عادل فى شرعة الحرب والسلم ، وأنه لازم كل اللزوم فى أحوال كتلك الاحوال

وأية كانت المثلات بالمرتدين فهي على التحقيق لا تتجاوز المثلات التي تؤمر بها « حملات التأديب » في عصرنا هذا لمعاقبة أناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون ولم يقرنوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ولا بتهديد «الدولة» في كيانها وهي أحوج ما تكون الى الأمان والضمان

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدا على الامعان في تأديبه على النحو الذي نحاه • فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرا احراق الناس : بعثت رجلا يعذب بعذاب الله؟ انزعه !

فلم يستمع اليه الخليفة لأنه كان في حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربا من ضروب العقاب

ومهما يكن من مجاراة هذا العقاب لطبع خالد ـ فهذه البعثة بين بعثاته جميعا هي بعثة التنفيذ المحض الذي لا يشوبه نصيب من الاستقلال ، إللهم الا استقلال القائد الكفؤ بحسن القيام على ما وكل اليه

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال الى أعمال خالد المستقلة في بقية حياته أن نتحرى نصيبها من الاقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه

فيجوز لقائل في هذا الصدد أن يقول ان الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة في بعثة بزاخة وانما أفضى خالد بهذه الخطة الى الخليفة فأقرها ووافقه عليها

ذلك جائز غير ضعيف الجواز ، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها الى يائها ، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الاقرار والموافقة ، ويميل بنا الى هذا الترجيح أن نصائح الخليفة في بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين في كل قبيلة وكل ميدان ، وأن الخطة قامت على التورية والسبق بالهجوم ، وكلاهما

مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبى عليه السلام • اذ كان مأثورا عنه أنه كان إذا قصد وجهة ورى بغيرها ، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين اليه، وقد جرى الخليفة على ذلك فى دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد .

كذلك تواترت بعض الاقوال بمسير خالد الى بنى تميم ـ بعد معركة البزاخة ـ قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم • قيل أن الأنصار أنكروا عليه المسير الى بنى تميم وقالوا له : « ما هذا بعهد الخليفة الينا ، إنما عهده ان نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا » فقال لهم خالد : « ان يكن عهد اليكم هذا فقد عهد الى أن أمضى • وأنا الأمير والى تنتهى الاخبار ، ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة ان أعلمته بها فاتتنى لم أعلمه حتى انتهزها »

بل قيل أكثر من ذلك أنه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالاغارة عليها • وهى أهول حروب الردة بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم

. فزعم قوم أنه قال لصاحبه بالبطاح : والله لا أنتهى حتى أناطح مسيلمة • فأبى الأنصار وقالوا : هذا رأى لم يأمرك به أبو بكر فارجع الى المدينة • فأصر على رأيه وقال : لا والله! حتى أناطح مسيلمة • فرجعت الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا ، ولئن هزموا لقد خذلناهم • فرجعوا اليه ومضى بهم الى اليمامة

والذى لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدا غير خالد الى بنى تميم ، ولو بعث غيره لصح أن يقال انه سار اليهم غير مأمور ، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذى القصة : « اذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له »

أما اليمامة فقد بعث اليها الخليفة عكرمة بن أبى جهل ثم

رأى حاجته الى المدد فوجه فى أثره شرحبيل بن حسنة ، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة ، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد فنكب نكبة شديدة • وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة فكتب الى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره ، ولم يقل أحد أن الخليفة وجه قائدا غير خالد لنجدة شرحبيل، ولا كان معقولا أن يكتفي بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده فى حاجة الى التعزيز والامداد

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدا بشأن اليمامة قبل خروجه الى البزاخة•••وليس من داع الى الشك فى نسبة ذلك المقال اليه ، ولا الى الشك بعد هذا جميعه فى تولية خالد قيادة الجيش الذى سار الى اليمامة

ومن المتواتر جدا أن خالدا لقى الخليفة بعد مسيره الى بنى تميم وقبل مسيره الى بنى حنيفة • لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ليلى • فهو قد توجه الى اليمامة مأذونا مأمورا بعد وقعة البزاخة وبعد وقعة بنى تميم • وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدا قد تولى حربا كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الاهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية في ذى القصة أن الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه المختلفة ، وأراد فى الوقت نفسه أن يشغل بنى حنيفة بأنفسهم فوجه اليهم عكرمة أولا ثم وجه شرحبيل بعده ليتلاقيا معا ، ويكون خالد قد فرغ في خلال ذلك من أمر بنى أسد فيدرك سابقيه معززا لهما ان تعذر عليهم أن يقهروا بنى حنيفة قبل قدومه ، وهى خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق من جرأة وحيطة وسرعة ،

ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالدا أن يرجـــع اليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثـــة لعله قد استجد شيئا فى غيابه

وفحوى الاقوال الكثيرة التى تتفق بالبداهة على هـــذا النسق أن خالدا قد تولى التنفيـــذ فى ترتيب أعماله وتولاه أيضا فى أوائل خططه ، ولكنه قد وكل الى نفسه فى الامور التى يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب • ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء•فقام بما وكل اليه جميعا عى أكمل الوجوه وأقمنها بموافقة الخليفة ، الا فى موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج : وأحـــدهما فى البطاح والآخر فى اليمامة • فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة ، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الاسلام

وظاهر من مقال الخليفة فى ذى القصـــة أنه لم يكن على يقين من عداء بنى تميم ، أو من ضرورة القتال فى أرضهم ، وانما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين اليهم • وبخاصة بعد وفود زعماء منهم باعلان الطاعة وايتاء الزكاة

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضى الله عنه قد كان يعمل عمله فى حروب الردة جميعا وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين ، وأن من دواعى انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء

فتقديره لموقف بنى أسد منذ البداءة كان أصح تقدير

وكذلك كان تقديره لموقف بنى حنيفة فى اليمامة

ومثل هذين فى صحة الالمام بالاحوال المختلفة شكه فى ضرورة القتال بالبطاح ، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة

على شرط ، وتخصيصه مالكا بالذكر دون الآخرين من زعماء بيوت بنى تميم

فالواقع فى أمر بنى تميم كما نعلمه اليوم أنهم لم ينطووا على خطر جسام وان اختلفت فى نياتهم الظنون

وتاريخهم قبل الاسلام بعشرات السنين يؤكد هذه الحقيقة ، ويوحى الى الخليفة رأيه الذى ارتآه

كانوا في أجهل أيام الجاهلية فى طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاد ووفرة ماء ومرعى .

وكانوا يجترئون على المغامرات التى تفرق منها القبائل الاخرى ، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التى تسير فى رعاية الدولة الفارسية وحراسة أناس من بنى حنيفة • وفارس دولة ضخمة يهابها العرب ، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان • فلما استشار كسرى بعض زعماء بنى حنيفة فى عقوبتهم قال له : ان أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة ،فاذا فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معى جندا من أساورتك ،فأقيم لهم السوق ، فانهم يأتونها • فتصيبهم عند ذلك خيلك

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع عنهم حاجياتهم من أرض الحضارة فى سنة مجدبة • واستعان عليهم بمن يستدرجهم الى مكان ينالون فيه

ولكن بنى تميم على هذا كانوا مثلا من الامثلة النادرة على عجائب الحظوظ فى هذه الدنيا ، فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانا الى نقمة تشبه القلة والضنك والخوف كما ظهر ذلك فى شأن بنى تميم

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواهه سببا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الاجماع بينهم على رئيس واحد

فتشعبوا بطونا يدين كل بطن منها لرئيس ، بل بيوتا في البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا الترات،ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم والغريب الطارىء عليهم من الاعداء والاصدقاء

وكان هـــذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية • فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الوآقفون له بالمرصاد حربا عليه • فأجاب رؤساؤهم الدعوة ، وأقرهم النبى على رآستهم ، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، ووكيع بن مالك على بنى حنظلة ، ومالك بن نويرة على بنى يربوع وهم بيت من بيوت بنى حنظلة الكبار

وكل أولئك رجال من ذوى الرأى آلراجح والقول النافذ والمناقب « الشخصية » ••• ويمتـــاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحـــد منهم ، وهى اللباقة والظرف والفصاحة وحسن المحاضرة،مع الوسامة والصباحة وأناقة الزى والشارة ، وهى فى جملتها تلك الصفات التى ترشح صاحبها لمآسى البطولة فى قصص الحياة ،. من واقع أو خيال.

• كانت فيه خيلاء وجفلة ، وكان متلافا لا يبقى على مال ، وكان فارسا شاعرا محدثا ظريف المدخل على من يعرف ومن لا يعرف ، ومن ذاك أنه كان يقصد الحى من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفــدية المصطلح عليها • فلا يحدث أهل الحى هنيهة حتى يخلبهم بحديثه ويأسرهم بظرفه وحسن سمته فيردوآ اليه أسيره بغير فدية ، ويفترقوا وهم أصفياء

وكان مالك هذا أول من قصدت اليه سجاح المتنبئة عند منحدرها من الجزيرة • فصرفها عنه بلباقته الى ملاقاة البطون الاخرى من بنى تميم • ولعله زين لها أن تجمعهم اليها عصبة

واحدة ، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها ... وانها وشيكة أن تنتقم له منهم ان هى دعتهم الى الالتفاف بها فلم يجيبوها .

ولم تزل الأنباء - قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها - يتابع بعضها بعضا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم الا ما كان من هزيمة عكرمة فى اليمامة وانتصار بنى حنيفة عليه ، وهو انتصار لا يسر بنى تميم لشدة المنافسة بينهم وبين بنى حنيفة

فلما أخذ الخليفة فى عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر ، فسبق بعضهم الى المدينة بحصته من الزكاة ، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها اليه ، وتحير مالك بن النويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات فى هباته وملاهيه ، ثم ليم فى ذلك فأجاب لائميه بأبيات قال فيها :

وقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فان قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

يعنى أن محمدا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة ، وقد مضى محمد فليس لأحد بعده أن يتقاضاه !

وهو على الجملة موقف رجل مسرف « لا يبالى ما يجيء به الغد » كما قال . وليس بموقف عناد وتحفز لقتال

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال . فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا فى أثر أهل البطاح . فجاءته بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع . فحبسهم ثم أمر بقتلهم ، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة مالك ليلى أم تميم ، وكانت من أشهر نساء العرب

بالجمال ، ولاسيما جمال العينين والساقين • يقال انه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها

وتضطرب الروآيات هنا أبعد اضطراب وأصعبه أن تهتدى منه الى مخرج متفق عليه

فمن قائل ان السرايا وجدت بنى يربوع يصلون وسمعت الأذان ، ومن قائل : لم نر صلاة ولم نسمع بأذان

ومن قائل ان الأسرى قتلوا لان الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد أن « دافئوا أسراكم » ففهم الحراس أنه يريد القتل لانهم من بنى كنانة والمدافأة بلهجتهم كناية عنه

ومن قائل أن مالكا قتــل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد

ثم تضطرب الروايات فى نقل حديثهما فلا يدرى له نص صحيح • فقيــل ان مالكا صرح بأنه لا يعطى الزكاة وانما يقيم الصلاة • فقال خالد : أما علمت أن الصــلاة والزكاة معا لا تقبل واحـــدة دون الاخرى ؟ فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك • فاتخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبى وقال له : أو ما تراه لك صاحبا ••• ثم حمى الجدل بينهما حتى أمر بقتـــله ••• ونسجت الخــرافة بعد ذلك نسيجهــا الذى لا يتماسك لوهيه • فزعموا أن خالدا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرا فأكل منه• وان شعر مالك جعلت النار تعمل فيه الى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر !! وهى خرافة تروى لتدلنا على شىء واحد • وهو وجود المحنقين الراغبــين فى التشهير بخالد وتبشيع أعماله وايغار الصدور عليه .

وقيل : ان مالكا لمح فى عينى خالد الاعجاب بامرأته فصاح به : هذه التى قتلتنى • فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام

ويذهب بعضهم الى أكثر من هذا فيزعمون أن هوى خالد لها سابق لحرب الردة ، وفى ذلك يقول أبو نمير السعدى :
قضى خالد بغيا عليه بعرسه وكان له فيها هوى قبل ذلك

وقيل ان خالدا توعد مالكا بالقتل فقال له مالك : أوبذلك أمرك صاحبك ؟ قالد خالد : وهذه بعد تلك ؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر فى أمره فكره خالد كلامهما • وعاد مالك يقول له : يا خالد ! ابعثنا الى أبي بكر فيكون هو الذى يحكم فينا • فقال خالد : لا أقالنى الله ان أقلتك • وتقدم الى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه • ويزيدون على ذلك أن خالدا دعا أبا قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر الى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها • فأبيا وأشارا عليه أن يكتب الى أبى بكر ، فلم يستمع اليهما

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدا لواء واحد ، وقفل الى المدينة غير مستأذن من قائده ، فلقى الخليفة ولقى عمر بن الخطاب ، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف • وطلب الى الخليفة أن يعزله وأن يقيده قائلا : ان سيفه فيه رهق • فلم يجبه الخليفة وقال له : يا عمر ! تأول فأخطأ • ارفع لسانك عن خالد • فانى لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين

ولكنه ودى مالكا واستدعى خالدا اليه • فلما قدم الى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبا وشدة فى طلب القود منه : رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته اسهما • فنهض اليه فنزعها وحطمها وصاح به : «قتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك »

فتركه خالد ولقى الخليفة فاعتذر اليه • فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى ثم عفا عنه واستبقى خدمته • فعاد خالد الى المسجد وفيه عمر ••• فبادره حين رآه مناجزاً :

هلم الى يا ابن أم شملة !٠٠ فعرف عمر أن الخليفة قد عفى عنه ٠ فلم يكلمه ودخل بيته

وحسبنا من هذه الاقوال جميعا أن نقف منها على الثابت الذى لا نزاع فيه

□

والثابت الذى لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحا قاطعا فى أمر مالك بن نويرة ، وان مالكا كان أحق بارساله الى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد وقعـــة البزاخة ، وان خالدا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه الى اليمامة بعد لقاء الخليفة

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: ان وقعة البطاح صفحة فى تاريخ خالد كان خيرا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الاقوال ، لانها لم تضف الى فخاره العسكرى كثيرا ولا قليلا ، وأهدفته لملام ، أحمد ما يحمد منه أن له عذرا فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذى لا يعلو على ميزانه ميزان فى ترجيح الرجال والاعمال

ولأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ . اذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير فى الحسنات والعظائم ، وأنه من الفقر فى هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته . ولم يكن خالد بن الوليـــد كذلك . بل كانت له فى ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة . ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال ويجد كل منهم فى نصيبه كفايته من الفضل والرجحان

خرج من البطاح الى اليمامة

خرج من وقعة لا خطر لها الى وقعة لها الخطر الأكبر فى حروب الردة وفى حروب الإسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين

ويرجع هذا الخطر الى قوة بنى حنيفة أصحاب اليمامة ، ودهاء رئيسهم مسيلمة بن تمامة ، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة الماء والثمرات

هابها أصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها : ان مسيلمة قد استفحل امره وعظم . فلم تهون عليهم خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها : « عليكم باليمامة . دفوا دفيف الحمامة ، فانها غزوة صرامة ، ولا تلحقكم بعدها ملامة »

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرا اخنس الأنف أفطسه شديد الصفرة زرى الهيئة ، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة ، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء ، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء ، فمن خلابته أن النبى عليه السلام ارسل اليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الاسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهار الرحال . فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى اليه وأنه سمع النبى عليه السلام يقول انه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة ! وقد استغوى سجاح ــ وهى تدعى النبوة ــ حتى شهدت بنبوته وتزوجته وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار . وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن . فقد كان نساؤه يحببنه ويجزعن عليه ، وصاحت احداهن ساعة أن قتله وحشى بن

حرب مولى جبير بن مطعم : « وا أمير الوضاءة ! قتله العبد الأسود ... »

وخليق بهذا أن يظن به السحر وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء . لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه . فيخيل اليهم أنه سر من الغيب أو معونة من الجنة والشياطين ، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والالاعيب التى كان يحذقها بعض الكهان فى بلاد العرب والعجم ، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويتعلم « النيرنجيات » حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها . ولم يكن فى طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب . فقد قيل فى وصفه وهو يتكهن « انه اذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه » ... والأغلب الأرجح أن به صرعا كأولئك الذين يشبهونه فى الخلائق والدعاوى ، ومنهم الذين يعالجون « الاستهواء » من المستهوين أو الوسطاء

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه . فتأتى له أن يجمع منهم اربعين ألفا أو ستين . وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير ، ولكنه لا يهبط الى ما دون العشرين قياسا على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوة النبوة ومقاومة الاسلام . فكان يقاتل ثمامة ابن أثال ، ويناوش بنى تميم لما بينهم من الدحول والمنافسات ، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين ، ويعلم أن أشياعه من بيوت بنى تميم قد يخذلونه ، وأن الذين دانوا بالاسلام بين قومه عيون عليه ، وأن الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره . فتحيل على مهادنة خصومه ، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم ، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح ، ثم تقدم بهم فى

عجلة الى موقع يقال له عقرباء فى طرف بلاده على مقربة من بلاد بنى تميم

ولم يكن خالد يجهل خطر الرجل الذى سيلقاه ، ولم يكن يخفى عليه أن الحرب فى العراء غير الحرب فى بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار ، فتوجه الى اليمامة فى أهبة كافية بالقياس الى أهبة المسلمين لأعدائهم فى صدر الاسلام

ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذى كان معه فى عقرباء ، ولكنه على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها . لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف ، يضاف اليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذى سبقه ولبث فى انتظاره ، ولا يقل عن الفين ، ويضاف اليهم الردء الذى أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمى ساقتهم ، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بنى تميم وبنى حنيفة ، فهم فى جملتهم يجاوزون الثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها ، ان نقصوا ، الا بقليل

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير انما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه . فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز فى عدته نصف جيش اليمامة ، ولكنه كان فى عدة وافية من أفذاذ الرجال الذين يقومون بالألوف ، فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران

وكانا كفؤين متناظرين فى صدق النية واتقاء العار من الهزيمة : هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين . وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون الى المسلمين : « هذا يوم الغيرة . اليوم ان هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات . فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ولا شواحذ الغيرة ولا صلابة العزم ولا توسم الأمل فى النجاح

□

ولم يزل خالد يتقدم الي وجهته على تعبئة كاملة كعادته فى معظم غزواته ، وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته فى كل مرحلة من مراحل الطريق . ولعله استعظم القوة التى حشدها مسيلمة فى عقر داره فجنح الى الأخذ بالأحوط وكتب الى الخليفة فى طلب المدد عسي أن يحتاج اليه بعد الجولة الأولى من جولات القتال ، فأمده الخليفة بجرير بن عبد الله البجلي . ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل اليه ، فلقيه منصرفا من اليمامة

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه فى الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين . عليهم مجاعة بن مرارة من زعماء بني حنيفة وأصحاب الرأى والمنزلة فيهم ، وكأنه كان خارجا لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذاهب لأخذ ثأر له فى بنى تميم وبنى عامر » . فلما سئلوا عن دينهم قالوا : منا نبى ومنكم نبى ! فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعا واستبقى مجاعة عسي أن ينتفع بمنزلته فى قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة كما قال لبعض الرواة

ونزل خالد على كثيب فى مواجهة مسيلمة . ثم التحم الفريقان « وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله » واندفعت فى هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم تميم ومجاعة بن مرارة مقيد بالأغلال . فهم بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجاعة وأوصاهم بها خيرا وهو يقول : نعمت الحرة هذه . وعليكم بالرجال

شوهد فى كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى

الصدر الأول أن الكرة الأولى غالبا ما تكون للمشركين ، ولا سيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال ، وهى مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف المعهود . لأن « الدفعة الحيوانية » أبدا لها الوثبة الاولى مع العدد الكبير وراحة الجسد . وانما الثبات للعقيدة التى يلوذ بها الانسان بعد المراجعة ، وللضمير الذى يثوب اليه المرء بعد الامتحان . وليس من شأن العقيدة أن تكون ـ كالدفعة الحيوانية ـ وثبة عاجلة وهجمة سوارة فاشلة . وانما شأنها أن تحاسب النفس وتستعيد قواها وتستخرج ذخيرتها من اعماقها . فهى لهذا تنفع صاحبها فى المحنة وبعد تبين الشدة . وبخاصة حين يحتاج اليها بعد الجولة الاولى

وهذا الذى حدث فى عقرباء كما حدث فى وقائع شتى

فبعد الجولة الأولى التى فازت بها « الدفعة الحيوانية » برزت العقيدة الى الطليعة وجاءت بمعجزاتها ، وهى معجزات لا يتخيل العقل أن نفسا انسانية تقدم عليها بغير اعتقاد

انكشف الأعراب أولا فى أول صدمة ، وتزلزلت أقدام أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة والمنهزمة على السواء

فبادر خالد الى تنظيم جيشه على وضع جديد . فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب كل بنى أب على راية . وصاح بهم : أيها الناس : تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الحياة ووهب النصر : حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف والرجوع الى الحق

ومسيلمة يروغ منه. ثم نادى بشعار المسلمين : «يامحمداه !» ودعا الى البراز وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له فى مجال . ولم يبال أن ينظر الى ما وراءه لأنه ترك كل شيء فى تلك الساعة الا أن يتقدم أمامه . ولم يزد على أن قال لجيرته أو من نسميهم اليوم أركان حربه «لا أوتين من خلفى» ومضى الى تقدم بغير رجوع ، الا رجوع ظافر مختار

وظهرت فى مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة . فحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الارض الى ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن . فلم يزل ثابتا حتى قتل فى مكانه

وصاح زيد بن الخطاب : «أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما» ثم أقسم : «والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى» فكانت آخر ما فاه به فى ذلك اليوم

وحمى البراء بن مالك وأخذته العرواء التى كانت تأخذه حين تتعالى الوغى ويحتدم القتال . فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضا وينظر بعضهم الى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم : يا أصحاب سورة البقرة ! يا انصار الله ! كما ناداهم النبى عليه السلام فى يوم حنين . فاستحى كل منادى منظور المكان منهم فى ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه ، ولم ير منهم الا قتيل فى موضعه أو زاحف الى الأمام

وما هى الا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين ، وهرول مسيلمة نفسه الى حديقة مسورة من ورائه . وقد سميت فى ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من قتل فى طريقها وكثرة من قتل فيها . ولاحت من البراء

نظرة الى جانب الباب ، فاذا هم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم. فصاح باخوانه : « يا معشر المسلمين ! القوني عليهم من فوق سورها » فاحتملوه فوق الجحف ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد ، ولم يزل يعالج باب الحديقة حتى فتحه ، وقد تواثب أفراد من المسلمين الى جانبه فأعانوه

وقتل فى هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل اكبر أعوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا فى الحيرة ، وهم فى هزيمة لايشار فيها برأى ولا يصغى فيها الى مشير . فشغلوا عن باب الحديقة وأعين المسلمون على اقتحامه من داخلها وخارجها . فحق لتلك الحديقة فى ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ، لأنها اشتملت فى يومها على الوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعا فى ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف ، أقلهم فى تقدير المقدرين عشرة آلاف من بنى حنيفة وستمائة من المسلمين ، وأكثرهم فى تقدير المقدرين يرتفعون الى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا حنفيين والفين مسلمين . وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح ولكنه يدل على هول صحيح سرى فى الآفاق من أنباء تلك المعركة التى ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء ، ومن جراء مقتلهم فى هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن فى المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يفنى آخرون

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى ، وعزم على غزو حصونها جميعا ولم يكن بقى فيها الا النساء والصبيان والشيوخ والكبار ، فاقترح عليه مجاعة أن يذهب اليهم لينزلهم صلحا عن معاقلهم . ثم خدعه وأخلص لقومه ، لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رؤوس الحصون ، فنظر خالد

فاذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس . فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد « وقد كلوا من كثرة الحروب » واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبى والغنائم ، ثم نزل من النصف الى الربع حين أوهمه مجاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه

فلما اطمأن المعتصمون الى الحصون من بنى حنيفة فتحوا أبوابها فلم ير فيها الا امرأة أو صبى أو شيخ فان أو رجل هزيل لا يرجى لقتال

وقد يتوقع من خالد أن يغضب على مجاعة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التى اجترأ عليه بها علانية وهو فى قبضة يديه

لكننا فى الحق لا نعجب اذا هو لم يغضب . لأن عمل مجاعة لا مراء عمل نبيل يكبره فى النفوس النبيلة ويبعث له فيها الاعجاب الذى يكفكف من شرة كل غضب سريع . فهوعمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة ، وكلتاهما فضيلة يعرفها خالد ويعرف للمتصف بها قدره فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر اليه نظرة شزراء وصرخ به : « ويحك ! خدعتنى » فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر، وانما قال : « هم قومى ! »

وما نحسب الا أن الاعجاب بمجاعة قد حبب الى خالد أن يصهر اليه ويوثق الصلة بينه وبينه : زعيم شجاع جميل الرأى حسن التدبير غيور على قومه عليم كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلم . فهو خير صهر فى تلك القبيلة التى يفخر « سيف الله » بدخولها على يديه فى الاسلام ، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب . وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التى يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهواء . فاختار له واديا

من أوديتها الجميلة يسمى الوبر ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة أخرى ، وخطب الى مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها ، وهى خطبة لا ترفض ولكنها قد تقبل وتؤجل لأن مجاعة قد علم من « ليلى » مذ كان سجينا فى خيمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه زواجها بخالد فى ساحة القتال . فأشفق هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوءه وتسوء ابنته وتسوء خالدا فى جريرته . فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه ، وقال له : « مهلا ! انك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك » ... ولكنه لم يلبث أن علم اصرار خالد حتى أجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الاباء .

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمرا باستئصال كل من يحمل السلاح من بنى حنيفة ، فعادت الرسل الى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج ، فحسب ان الأمرين مقترنان واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع فى نفسه من حسبان ، فكتب اليه أعنف خطاب وجهه الى قائد من قواده أو وال من ولاته ، وسماه « ابن أم خالد ... » وقال له فى خطابه : « انك لفارغ ! » ونعى عليه أنه « ينكح النساء وبفناء بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد »

وقد كتب خالد الى الخليفة يعتذر فى أنفة وعزة : « أما بعد فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى الدار ، وما تزوجت الا الى امرىء لو عمدت اليه من المدينة خاطبا لم أبل . دع أنى استثرت خطبتى اليه من تحت قدمى . فان كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو دنيا أعتبتك . وأما حسن عزائى على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حيا أو يرد ميتا لأبقى حزنى الحى ورد الميت ، ولقد اقتحمت فى طلب الشهادة حتى أيست من الحياة وأيقنت بالموت . وأما خدعة مجاعة اياى عن رأيى ، فانى لم أخطىء رأى يومى ولم يكن لى علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين

خيرا ، أورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين »

وقال فى رسالة أخرى : « انى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به وحتى عجف الكراع ونهك الخف ونهك المسلمون بالقتل والجراح »

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطا عليه ذلك السخط لولا اصغاؤه « للأعيسر » كما كان يسمى عمر بن الخطاب ! ويخيل الينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا أن زواجه ببنت مجاعة كان مسبوقا بذلك الزواج الذى خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة

□

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد فى حروب الردة كأحسن ما ينقضى هذا الواجب ، وقام وحده بأوفر سهم فى هذه الحروب ، لأنه قمع أخطر الفتن فى الجزيرة العربية من أقصاها الى أقصاها . فقمع فتنة بنى أسد وحلفائهم وخطرها أنها كانت أقرب الفتن الى المدينة ومكة ، وقمع فتنة بنى حنيفة وخطرها أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة ، وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التى نظرا معا فى تفصيلاتها أو من الخطط التى عرف خالد غاياتها وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها . ولم يخالف رغبة الخليفة الا فى موضعين لهما ــ كما أسلفنا ــ علاقة بمسألة زواج

أما الأولى ــ وهى زواج ليلى امرأة مالك ــ فقد تقدم تلخيصها وجملة الرأى فيه كما أسلفنا أنه عمل يحوج خالدا الى الاعتذار والتفسير ، وأنه صفحة كان خيرا له لو طويت

من تاريخه ، فما فيهـا مزيد افتخـار ، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار

وأما الأخرى فلا يسع أحدا أن يسهو فيها عن عجلة خالد الى الزواج على غير عادة القوم فى ميادين القتال

ولكن لا يسع احدا كذلك أن يتعدى هذا الى مظنة تمس نية الرجل أو تجعل صلحه لبنى حنيفة متصلا برغبته فى الزواج ببنت مجاعة زعيم الحنفيين فى صلح اليمامة

ذلك بعيد ، جد بعيد

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه ، وكان فى وسعه أن يقتل أباها نقمة من خداعه اياه ، ومرضاة للخليفـة الذى أمره باستئصال من يحمل السلاح فى القبيلة ، فهـو يقتله ولا معتبة عليه

ولم يصالح خالد بنى حنيفـة وهم مجمعون على قبول صلحه . بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع ــ هو مسلمة ابن عمـير ــ أبى أن يذعن لشروط مجاعة ومضى يهتف فى قومه : « يا بنى حنيفة ! قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء ، فان الحصن حصين والطعـام كثير ، وقد حضر الشتاء »

فلما عارضه مجاعة وذهب برأى الأكثرين من قومه تمادى مسلمة بن عمير فى لجاج الخصومة وانسل الى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التى لا تؤمن عقابيلها فى معسكره ومعسكر بنى حنيفة ، فتنبه خالد اليه وسأل : من هذا المقبل ؟ فعرفوه به فقال : أخرجوه عني . فلما أخرجوه وجدوه يخفى السيف فى ثيابه ، فلعنوه وأوثقوه فى الحصن وأخذوا عليه عهدا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهي بيعة قومه على الاسلام ... ولكنه غدر بعهده وأفلت بالليل الى عسكر خالد مصرا على قتله ، فلما أدركوه دون

بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم

ومع هذا بقيت بلدة « القرية » ووادى العرض فى اليمامة لم يشملهما الصلح الذى شمل العسكر فى عقرباء . فلم تكن مطاولة القوم خيرا من المصالحة فى حالة كتلك الحال ، ولم يكن فى طاقة المسلمين أن ينهدوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء ، ولم يكن ارجاء التسليم مأمون المغبة اذا استثيرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعاند فى الخصومة ذلك العناد ، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع الى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبى النساء « غير حظيات » وقتل القادرين على الحرب من فتية وكهول

فدواعى خالد الى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ ؛ وأن الداعى الذى لا يعقل ولا يستساغ هنا لهو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة ! وأيسر شىء لديه أن يسبيها بعد قتل ذويها ، ثم يكون ذلك أدنى الى رضى الخليفة وتحقيق ما أمر به ، قبل أن يطلع على الموقف فى اليمامة من جملة نواحيه

□

وبعد فليحسب زواج خالد كله فى أى سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون

ففى سجل المفاخر الاسلامية شىء يحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف ، فتلك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبى عليه السلام أنه سيف من سيوف الله

كان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم

« الأعاجم » التى تحيط بالبلاد العربية

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الاسلام فى أرضه ، وهو أوفى نصيب .

وسنرى نصيبه من مراس الخطر الآخر وما هو بأكبر الخطرين ، ولكن نصيب خالد فى مراسه كان أوفى النصيبين



الفتوح

أعظم عجائب التاريخ

فى سبع سنين قصـــار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم

فتقوضت فى الشرق دولة الأكاسرة ، وتداعت فى الشمال والغرب دولة القياصرة ، وزال سلطانها من الشام وفلسطين وافريقية الشمالية ، وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه

عجيبة من أعظم عجائب التاريخ

لا يبرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون فى تعليلهـــا كل يوم بعلل جديدة ، ويفيضون فى شرح السوابق واللواحق على النحـــو الذى يفسر العجب بالمألوف ، ويرد الدهشة الجامحة الى قرار البحث والتدليل

وهو جهد لا نعرض له فى هذا الكتاب ، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه

انما يعنينا منه شىء واحد وهو تقدير عمل خالد ، وتقدير الكفاية التى تضطلع بذلك العمل ، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقى التاريخ منشعب اللسان فى استقصاء علل الهزائم التى نزلت بالفرس والروم

فالأسباب التى قضت على الفرس والروم بالهـــزيمة ــ كائنة ما كانت ــ ليست هى الأسباب التى قضت للعـــرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشىء لغيرهم حق الظهور والبقاء

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهـــم

عرب وكفى ، ولم تكن المسألة فى لبابها كفاحا بين الأجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب

فقد كان فى أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون اليهما نظرة الاكبار والمهابة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين عددا وأمضى سلاحا وأقرب الى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين اليها من جنوب الجزيرة العربية

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر فى العدد والسلاح وأغنى بالخيل والابل والأموال

فهى نصرة عقيدة لا مراء

وينبغى أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها الى جانب واحد

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو فى وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة العقيدة التى تخلفها وتنتصرعليها فى ساحة النزاع

اذ كان أدعى الدواعى لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها

فاذا قيل ان العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعى النظم التى اصطدمت بها فليس هذا تعليلا وكفى ، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور ، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية ، وأنها علاج عالمى مطلوب جاء فى الأوان

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول

أفكل مناضل متذرع بالعقيدة صالح فى تلك الآونة للانتصار ؟

ينبغى أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنيا عن كل تعليل

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولى

خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها

وقد افلح أناس وأخفق آخرون

فانهزم عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد فى اليمامة

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه فى وقت واحد ، فسار خالد من نصر الى نصر ومن توفيق الى توفيق . ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة فى دومة الجندل

وسبق خالد بن سعيد خالدا بن الوليد الى الشام فغرر به الروم حتى استدرجوه الى مرج الصفراء فأوغل وراءهم ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التى ارسلها اليه تباعا بقيادة عكرمة بن أبى جهل والوليد بن عقبة وذى الكلاع الحميرى ، فأحدقت به جحافل الروم وأوشكت أن تلتف به من ورائه ، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده فى أوقاتها لقضوا عليه

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها فى الغلب وحاجة العالم اليها فى تلك الآونة

ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضل رجالها وحماتها ، وكفاية سواسها وقادتها

فهى عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون ، وكان خالد ابن الوليد فى طليعة هؤلاء الحماة

□

سبقه اسمه الى اطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته

قبل أن يحاربهم بسيفه ، وكانت هذه أول مزية لاختياره وأول فضل يحسب له فى ميزانه ويضاف الى قيادته ويعمل عمله فى نفوس أعدائه كما يعمل عمله فى نفوس اتباعه

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره اليه : « أنا أعلم الناس بخالد . لا أحد أيمن طائرا منه ، ولا أصمد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه . فاطيعونى وصالحوا القوم ! »

وكان الرجل من العرب يعيش فى الشام ويهجر موطنه الاول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامه والدروب ، فما هو الا أن ينضوى اليه حتى يوقن بيمن طائره ويسرع الى طاعة أمره عليما بانه لا يأمر الأمر الا وهو قادر على انجازه. كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمرد :

اذا قال سيف الله كروا عليهم
كررت بقلب رابط الجاش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة ، ان كانت القصة من توليد الخيال

قيل أن قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له فى أكبر وقائع الشام وسأله : أحق أن الله انزل على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم الا هزمتهم ؟

قال خالد : لا !

قال : فبم سميت سيف الله ؟

قال : تابعناه فقال أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله . فأنا من أشد المسلمين على المشركين

وكل هذا شبيه بأن يكون

فان لم يكن نبأ خالد قد وصل الى كل عدو من أعدائه

فالذى لا ريب فيه أن أتباعه كانوا على علم بنبئه فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه ، وكانوا يطمئنون اليه فيعملون معه عمل المطمئن الى نجاح سعيه ، وهذا هو فضل القيادة الصالحة فى نفوس الأتباع

حالة الفرس والروم

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبى عليه السلام بسنة واحدة ، وبعد حروب طالت فى الجزيرة العربية عدة سنين

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب وكانت البيئة لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم فى تلك الأعوام : فتن وفتن ، ونبى مات وملك قتل أو قيصر شاخ ! فهؤلاء وهؤلاء فى العلة سواء

لكن حركة العرب حركة انشاء ونماء

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال ، وكذلك جسم الهرم الذاهب ، ولكن شتان اضطراب واضطراب

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد الى تخومها من ناحية السواد

وكانت علل مثلها ــ وان كانت أخف منها ــ قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية ، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبلقاء : وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ فى الدولتين :

يقول شراح الحضارات أن الحضارات تبتدىء بمعنى روحى

قليل المظهر ثم تنتهى الى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية

وهذه هى الحالة التى كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامهما بالدعوة الاسلامية فى نهضتها الاولى

ففى بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور « زرادشت » مصلحهم الدينى الكبير زهاء أربعة عشر قرنا ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءا على سوء

وخلف فى بيت الملك أمراء ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء نشغلوا بالنزاع بينهم وأسقطوا هيبتهم فى بلادهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة فى فتن وبيلة وخيمة وترف أوبل وأوخم . وما برحوا فى طغيانهم وتهافتهم حتى ولى الملك ازدشير فرأب صدعه وأوشك أن يعيده الى سابق مجده وتركه فى القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس الى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء

ثم نكس النكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علوا وسفلا قبيل ظهور الدعوة الاسلامية . وكان الملك المعاصر للنبى عليه السلام كسرى أبرويز فثار به ابنه شيرويه فقتله ونكل بذوى قرباه ، وأعقب طفلا صغيرا فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهريزار ، فنفس عليه القواد والعظماء منزلتــه المغصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى ابرويز ، فلم تتم فى الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى من بنى عمومتها الأبعدين ، ثم قتل وخلفتــه بنت أخرى لكسرى ابرويز فقتلت ، وقتل من بعده الى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهريار والدولة تترنح من فرط الاعياء

ومنيت فى أيامها الأخيرة بضربة قوية فى حروبها الخارجية : وهى غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشام منهـا ورد

حدودها الى دجلة والفرات بعد ان طغت على حدود آسيا الصغرى ، وقبل هذا منيت بضربة دون هـذه الضربة فى القوة والضخامة ، ولكنها أشد منها أثرا فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الاسلاميـة : وتلك هى ضربة الهزيمة « بذى قار » التى تقدم وصفها فى أول هذا الكتاب . فان هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة وهيبة ، ولاسيما العرب المقيمين بجوار ذى قار وأرباض السواد ، ومنهم جند خالد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس فى العراق

وسـاءت من جراء ذلك كله شـؤون الأمة فى الديار الفارسية ، فتهالك العلية على المظاهر وانغمسوا فى الترف واستكثروا من النفائس والأموال وشغلوا عن سواد الأمة فشاع بينهم الفقر والضنك والتـذمر وبغض الحكام ، ولم يعلمـوا فيم هم مسوقون ، وعلى اى شيء يتقاتلون ويتفانون . وهى حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والجدران

ومن أعجب العجب أن يفطن رجل كالمغيرة بن شعبة لدلالة هذه الحال ، وهى معدودة فى عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التى لا يصل اليها الباحث الا بعد مقارنة واطلاع واسع مستفيض ، ولكنه العجب الذى يفسر لنا ما هو أعجب منه : وهو وفرة نصيب العرب يومئـذ من أقطاب الرجال ذوى الحنكة والنظر البعيد ، وانهم قد ظفروا لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين ، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور فى التواريخ والأساطير فجلس معـه على سريره . فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوى « المغرور » واجتذبوه من مكانه على السرير فى عنف شديد . فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد على أن قال : لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام

ولا ارى أسفه منكم . انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ـ اى نتساوى ـ فكان أحسن من الذى صنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض . ان هذا الأمر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد . وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى ... اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وان ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول »

كلمات من ذهب !

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال فى جوابه : « واليوم علمنا أنكم غالبون ، وان أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذى قوامه من هذه السيرة وهذه العقول »

على أن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الاقفار فى أظلم ظلمات الجهالة والادبار ، فقد وزن « يزدجرد » شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم : « انما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى اليه الطير بالليل ، فتبيت فى سفحه فى أوكارها . فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها . فان شذ منها شىء اختطفه . فلو نهضت نهضة واحدة ردته ، وأشد شىء يكون فى ذلك أن تنجو كلها الا واحدا . وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت ، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم »

وصف صادق من جملة أطرافه

وعلامة من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدى العارفين به الى رأى متفق عليه ، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه فى العلاج اذا شارف الجسم الفناء . ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب فافترقا مختلفين

وكما بقيت لأهل فارس يومذاك مسكة من حلوم بقيت

لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربيـــة ، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة

وهـــذه المسكة شرف للقادر ولـكنها بلاء على العاجز المتخاذل ، كأنها الوثبة التى تعجل بالهلاك أن وثبها المريض الهزيل ، وانها فى الأقوياء لعوان على المجد والطموح .

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون أنهم مقدمون على مباراة فى حلقة صراع ، ينظرون عدوهم حتى يصل اليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه فى أمان !

ففى وقعة الجسر أقبل بهمن جاذويه ومعه راية الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ، وبين يديه جيش يربى على جيش المسلمين مرات . فأرسل الى أبى عبيدة قائد المسلمين يقول له : اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبـــور واما أن تخلوا بيننا وبينـــه ! فتعجـل أبو عبيدة وعبر النهر على جسر نصبوه ، والفرس ينظرون !

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال ، وحقيقته انه صراع حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبـــة سباق أو حلقـــة رهان بين لاعبين فى ملهاة

□

أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت فى حال لا تفضـــل حال جارتها وعدوتها فى محنة العقيدة ومحنـــة النزاع على الملك والولاية

ضرب المثل بالجدل البيزنطى فى التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية فى الدولة الرومانيـــة الشرقية ، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم

بالهرطقة والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب الى الاسلام منهم الى المسيحية

وأبتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له فى نفوس العلية وقواد الجيوش . وقد أستقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذى حضر عهد النبى عليه السلام ولكنه شقى بالفتن فى أخريات عهده وركبته الوساوس فى شيخوخته ولاسيما بعد بنائه ببنت أخته ، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين ... لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة ، فأثخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل انهم كانوا يفتكون فى المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال

وعاشت فى ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذام وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة فى الحيرة . ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة أخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين . وهيأ نفوس العرب لقبول دعوة جديدة ولاسيما الدعوة التى تأتيهم من أبناء جنسهم فى الجزيرة العربية ، وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم . واتفق فى تلك الفترة انقطاع الهبات التى كان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Vegetius فى علم الحرب ان نظام الجيش الروماني فى الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين . ففى

هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذى يعدونه أمام أساتذة الحرب بين الغربيين أن « اللجيون » قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفا على الكفاية والخدمة الطويلة ، وان عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة فى الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعا بوطأة نظامه

وقد أتيحت للرعية فى الشام والبلقاء فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التى دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية . فقد كان رجال الجيش الرومانى يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرماتها ويسكرون ويعربدون فلا يأمنهم أحد مطموع فى ماله أو غير مطموع منه فى شيء على الاطلاق ، وانما هى العربدة والضراوة والاستخفاف . ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم ، ويقيمون فى المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية الى أهلها لأنهم انما أخذوها لحمايتهم وحمايتها . فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة الى التراخى فى الدفاع عن الحكم القديم وتمنى الغلبة للحكم الجديد . وقد تتجاوز ذلك الى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء

□

بل ربما تجاوزت كل هذا الى ازعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم . فمما يروى فى هذا المعنى وهو كثير أن أخا القيصر وقائده سأل رجلا من قضاعة عن شأن المسلمين بعد ما أقام بينهم أياما فقال له :

« هم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجموه اقامة للحد » . فقال القائد : « لئن كنت صادقا لبطن الارض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها »

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما اخطأوا فلم يضربوا ضربتهم فى موضعها فيتسع لهم الوقت لاصلاح الخطأ والرجوع الى الخليفة لطلب النجدة والمشورة ، لأن أعداءهم مشغولون أبدا بنزاع أو فتنة أو ريبة . أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لاصلاح خطأ يخطئونه وكثيرا ما كانوا يخطئون . فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التى تدعو الى النصر وعند الآخر كل حقائق الأسباب التى تدعو اليه

▭

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم وسيف الله بوادى الوبر فى اليمامة لم يطل استقراره فى غمده بعد وقعة عقرباء

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادا للوقعة الاولى بذى قار ، أو استئنافا لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة فى تواريخ النزاع بين الأمم ، وهى نيف وعشرون سنة

فالقبائل التى ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التىانحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من اتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية فى ذلك الزمان ، وكانت تعيش كلها فى ظل تلك الدولة من أيام المناذرة الى زوال ملكهم بعد وقعة ذى قار

والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والاغارة على

دهاقينهم فى تلك الأصقاع كانا من بنى بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر فى وقعة ذى قار ، وما برح العداء بينهم وبين الفرس والقبائل التى تواليهم على اشد ما يكون : وهما المثنى ابن حارثة الشيبانى وسويد بن قطبة العجلى . وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم فى أطراف العراق . وقد صحب المثنى النهر فى غاراته حتى بلغ القطيف وهجر ولم يقف له أحد فى طريقه . فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم فى اليمن لدخولهم فى الاسلام قضيا على تردد الخليفة فى أمر البعثة الفارسية ، فصحت عزيمته وعزيمة أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمرا الا أحكم تدبيره فى مرحلة مرحلة من طريقه الى منتهاه

وهكذا كان شأنه فى البعثة الفارسية . فانه ندب لها قائدين هما خالد بن الوليد وعياض بن غنم ، وامر خالدا أن يتجه الى الابلة ثغر الهند كما سماها ، وأمر عياضا أن يتجه الى المصيخ بشمال العراق . فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميله، وقال لهما : « اذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس أمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم »

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى فى وقت واحد . ففيها اذكاء المنافسة بين القائدين ، وفيها تشتيت جهود الفرس فى الدفاع عن بلادهم ، وفيها تدبير النجدة سلفا لمن يحتاج اليها من الجيشين ، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ فى الطريق للجيشين معا ، لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين اذا سارا فى طريق واحد

وكان الصديق واخوانه يعلمون ان المسألة فى هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة

فحرص لهـذا على ان يجنب الجيوش الاسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم ، وأوصى القائدين الا يقبلا أحدا منهم ، والا يكرها أحدا من غير المرتدين على المسير فى جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضى منه ورغبة . ولما نظر خالد الى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب الى الخليفة يستمده فامده بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمى ! فعجب أصحابه وقالوا له : اتمده برجل واحد ؟ قال : نعم ! لا يهزم جيش فيهم مثل هذا !

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف وأى كفاية ! فان ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيـه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحـدب . فبلغ جيش خالد يوم شارف ميـدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلهـا انقذت الجيش كله يبلغ ثمانية آلاف . ولم يتقدم المسلمون خطوة فى ميـدان القتال حتى كانت للقعقاع وقعة لعلها انقـذت الجيش كله وانقذت البعثة كلها من مبدئها ، ولم يكن أحـد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التى تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين

ففى الوقعة الاولى دعا القائد الفارسى ــ هرمز ــ خالدا للمبارزة قبل التحام الجيشين ، واضمر نية الغدر به حين يخرج منفردا بين الصفين ، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضون عليه وهو مشغول بمبارزته فيراع الجيش العربى بمقتل قائده كما سبق الى وهمه ، ويطبق الجيش الفارسى بعدده الكبير على الجيش العربى بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين !

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذى دبره هرمز

لولا انه أخطأ الحساب فى اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد فى مبارزته ، فظن أن الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد ، ولكنه صرع فى جولة واحدة وفوجىء أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالاجهاز على قائدهم ، واذا بالقعقاع أسرع اليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب فى قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة . فكانت وقعة اليوم وقعة رجلين فى جولة واحدة ، تلتهما الجولات اللاحقات التى ترسمت خطاها وسارت على هداها

□

سار خالد الى العراق فى أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية . وأتم فى سنة واحدة ما أعيى الرومان أن يتموه فى أجيال

وقد تكتب فى شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ، ولكنا لا نتوسع فى ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعنينا فى هذا الكتاب لمقصد واحد ، وهو الرجوع الى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه

وفى هذا حسبنا أن نقول على الاجمال قبل الاشارة الى وقعاته انه لقى الفرس وأولياءهم فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطىء ولم يفشل قط فى واحدة منها ، وأن قوادا من المسلمين أخطأوا فى حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبى عبيدة وخالد بن سعيد ، ولكن خالدا لم يخطىء قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة ، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجىء ، وكان أبدا كما

وصفه عمرو بن العاص « فى أناة القطاة ووثبة الأسد » فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة ، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه فى بعض الساحات لينتقل به الى المكان الذى هو أصلح لحركاته وأعون له عليه . ومن علمه بفنون القتال انه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكأنه يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء . فاذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف الى مكان يغنون فيه فذلك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربى على الحاجة الضرورية ، فان طرأ فى خلال سيره ما ليس فى الحسبان فمعوله فى هذه الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق وهو ينقض على فريسته ، فلا تشعر الفرقة التى أشخصها الى مكانها بالحاجة اليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها

فهى شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لازم فى وقت لزومه ، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط فى ساحات فارس ولا فى ساحات الشام ، مع اختلاف الميادين واختلاف الأحوال واختلاف الأعداء

وقد كانت تعبئة خالد فى المسير تشبه التعبئة التى جرى عليها العرف فى أيامه ، وهى قسمة الجيش الى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه ، وردء يلحق به ليحمى ظهره أو يلبث فى موضع من المواضع كمينا ينزل الى الساحة على غير انتظار ، لتقوى به سواعد أصحابه وتنخذل به عزائم أعدائه . ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة . فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليه ، ويتراجع أمامه أو يمعن فى الهجوم على كبة جمعه ، ويحصره أو يخلى له سبيل الهرب ، حسبما تدور به المعركة فى أثنائها أو توحى به طوالعها قبل ابتدائها

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من طرق مختلفة ، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم ألحق به عدى بن حاتم صاحبه فى حرب بنى أسد ، ثم لحق بهما على رأس جيشه وواعدهما موضعا الى الجنوب الغربى من البصرة الآن ، ولعله توخى تسهيل السقى والمرعى بهذا التقسيم ، ثم اختبار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب

وكتب الى هرمز قائد الفرس يخيره بين الاسلام والجزية أو الحرب ، ويقول له فى ختام كتابه الوجيز : «جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

ثم عدل الى كاظمة بعد أن كان موعده الأول « الحفير » لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه

وهنـــاك التقى بجيوش الفرس ـ وعلى رأسهم هرمز ـ فوقعت بينهم الوقعة التى سبقت الاشـــارة اليها وتعرف باسم ذات السلاسل ، لان الفرس كانوا يوثقون أنفســهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات ليثبتوا فى القتــال ولا يتأتى لهم الفرار ان أرادوه • ولئن صح هـــذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة الى النية القوية

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخـــذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون فى « المدائن » عاصمة ملكهم فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت اردشير • فأدرك فلول هرمز فى « المذار » وضمهم اليه،وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة اليـــه فكتب الى خالد يستأمره ويستمده • فكان خالد هو الجواب

ووصل خالد الى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل ابتداء القتــال ، فنهض اليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان ، وأراد معقل أن يحمي خالدا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه الى قتل قارن. وبرز عدى بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين، فظفروا بهم جميعا ثم اشتبك الفــريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة ، وبلغ بعضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذاك ولم يكد يفلت من الموت أحد .

□

ورانت الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس فخيل اليهم أن في هؤلاء العرب سرا لا يدركونه وأحبوا أن يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين ، واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التى دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار ، وضايقوا المسلمين غير قليــل فى الوقعتين التاليتين بالولجة وأليس

وكان خالد كعادته فى الحيطة والمبادرة . فاستبقى طائفة من جيشه فى البلاد التى فتحها حماية لظهره واستعدادا لمن يجترىء عليها بعد مسيره . وتقدم الى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعا ، ثم فصل طائفتين من الجيش أثنــاء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة ويلتفا فى ساعة الحرج بالجيش الفارسي من ورائه . فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان . وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هنــاك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى . ثم ظهر أحد الكمينين وظهر

الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الاول. فتولاهم اعياء اليأس بعد اعياء المصابرة والمجاهدة ، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد فى مهربهم ... فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والاسلاب

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة «أليس» وهى أعجب الوقائع فى حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب ، ولعلها هى الوقعة الحاسمة فى النزاع بين المجوسية والاسلام .

راع الشاهنشاه تلاحق الهزائم على جيوشه ، وغاظ العرب الموالين له أن يؤخذوا فى حماهم وأنفوا أن يهانوا ولا يراهم الناس كفاء لتلك القبائل الواغلة عليهم ، فتلاقوا فى الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهى أليس ، وانتظروا هناك جحافل من الفرس وعدوهم أن تربى فى العدد والعدة على كل جيش نزلوا به الى الميدان فى المعارك الماضية

وهنا تتراءى فى الموقف اصبع المقادير

فان « بهمن جاذويه » قائد الفرس الذى أمره الشاهنشاه بالمسير الى أليس أناب عنه قائدا آخر يدعى جابان وشخص هو الى المدائن ليلقى مولاه ويقلب معه الأمر على وجوهه فى مسائل شتى لا تغنى فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة، وليأتى من المدائن بمدد آخر يضاف الى جيشه الأول والى جموع القبائل العربية عند الفرات. وقال لجابان وهو يودعه « كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك ، الا أن يعجلوك »

وبلغ المدائن فاذا مولاه مريض يجود بنفسه، وليس نظام الوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح

والاستقرار بحيث يطمأن اليه اذا مات الملك والجيش بعيد والمتربصون كثير والشيع فى البلاد أكثر من المتربصين

فبقى بهمن فى المدائن ، ووصل جابان الى أليس قبل أن يصل اليها خالد فالقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام . ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله . فلبثوا على طعامهم لانهم أمروا من جهة ألا يعجلوا الى القتال حتى يوافيهم قائدهم الكبير ، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا أن خالدا يلقى أثقاله وهو علـى تعبئة كاملة مستعد للنزال فى كل لحظة ، ولانهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتـال أبدا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر أو ساحات المباراة فى « الالعاب الرياضية » .. وانما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين !

ولكن خالدا ضرب ضربته الأولى فى الجموع العربيةفقتل قائدها وأثخن القتل فى صفوفها ، وثار الفرس الى السلاح مكرهين لئلا يمهلوا خالدا حتى يفرغ من الجموع العربيـة ويتحول اليهم بين لحظة وأخرى

فثبتت الجموع العربيـــة حين أسعفتها النجدة ، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدركهم قائدهم الكبير . وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم. فاشتد الأمر بخالد وثاب الى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا ان منحه أكتاف أعدائه : « فلا يستبقى منهم أحداً يقدر عليـه حتى يجرى نهرهم بدمائهم » . وفى هذا النذر بقية من البدوية المخزومية لا تخفى على اللبيب

وطال صبر الفرس فنفد

وتساقطت رؤوس العرب الموآلين لهم فجزعوا

ولاحت لخالد لوائح النصر الذى ســـأله الله ، فلم ينس

نذره ونادى فى المسلمين : « الأسر ! الأسر ! لا تقتلوا الا من امتنع » ... لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء...فليجر النهر اذن بالدماء

وأمر بضرب أعناق القوم فى النهر وقد حبس ماءه ! فلم يجر بالدماء ! لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الارض كما قال له أصحابه . فأطلق الماء فسال بالدم الاحمر قانيا ثلاثة أيام !

▭

وحمادى ما يقال فى الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة فى تاريخ صدر الاســـلام أنها كانت شرعة الحرب فى تلك الايام ، وأنه كان يدين بها أناسا صنعوا بالملل الاخرى مثل ما صنع بهم فى هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط مثل هــذه المعاملة فى حروبهم مع العــــرب والدولةالرومانية ، وان خالدا حسب أن هذه الذبائحقربان الى الله...ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب ! وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك فى صدر رجـــل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيـــد ، وأكبر الظن عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجـــلا ممن طالت صحبتهم للنبى عليه السلام كأبى عبيـــدة أو سعد بن أبى وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل الى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وجد الجد فى معـــركة أليس . فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وظفر المســلمون بألوف الأسرى فى معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى فى القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين فى جواز قتل الأسرى من غير مشركى العـرب ، فلم يجزه من أجازه منهم الا لحسم مادة الفساد ، ان خيف ألا تحسم بغير

هذه الذريعة • وقد كانت مادة الفساد في أعقاب الدولة الساسانية خليقة ـ ولا نكران ـ بضربة من أمثال هذه الضربات ، فقد أعيت فيها الحيلة من دعوة واقناع ومصابرة، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى في تلك المعركة الشعواء ، وهي في غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الأقدار ، وتلك هي المعارك التي يرآد فيها الغالب والمغلوب على الأمر ، ولا يريدان فيه

وقديما علمنا من طوارق الحرب والسلم أن الشر المحض والخير المحض في هذه الدنيا عزيزان أو مستحيلان • فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف في حروب صدر الاسلام ، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لابد له من ختام ، فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سلطان الطغاة في بلاد الفرس بل في بلاد الروم ، وكان من جرائها أن الأمصار التي كانت تفزع من حصار خالد لها كانت تلقى بأنفسها في أحضان غيره من قادة المسلمين ، كما أسرع أهل دمشق الى ابن الجراح يلتمسون مصالحته مخافة الفتح عنوة على يد ابن الوليد

□

كانت هذه الوقائع تتوالى يوما بعد يوم وتتوالى معها البرد الى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتال ، فلا يفرغ الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد • وسبقت ضربات خالد كل آمال الآملين في سرعة الظفر بدولة الأكاسرة • فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء الظفر ليزفوا بشراها الى الجزيرة العربية : «يا معشر قريش! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ••• أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد ؟ »

ثم سلمت الحيرة ـ بلد النعمان وموئل نابغة بنى ذبيان ـ فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح فى بلد من البلدان ، لأنها كانت فى عالم الشعر والبلاغة حديثا على كل لسان

الا أن الخليفة الذى عرفناه رجلا حصيف الجرأة ، جرىء الحصافة،لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين . وأدركه الحذر فى هذه المرحلة من مراحل الحرب فجنح الى الأناة والتريث وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق . وحجة الخليفة فى ذلك أظهر من أن تخفى . فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار . ثم ان السواد نفسه اقليم حديث العهد بالاسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطوح بعده الى حمى الدولة الفارسية فى عواصمها من وراء النهرين ، وقد نمى اليه ولا شك أن فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا فى الصحراء الى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون ، وفى الشام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتتمهد مواطىء الفتوح ، فان لم يخرج عياض ابن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكا زمامها وزمام ما حولها فكل خطر هنالك محتمل،وكل عجلة قد تجر الى وبال

ولكن الفرس الكريم الذى يحبس فى الحلبة يعانى من أمان الحبس ثقلة لا يعانيها من تعجل العواقب ومكافحة الاخطار . فحز فى طبع خالد جذب العنان وأقام فى انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه «سنة نساء !» ولو كتب لرجل غيره أن يظفر فى هذه السنة « المستريحة » بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه سجل عمر كامل ، لانه خاض ثمانى وقائع

فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى ! وله فى كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور

وقد عرضت لخالد في هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل فى الحساب أو تأتى من هنـا وثم على غير حسبان • فتصرف فيها جميعا تصرف الرجل الذى خلق للتقلب فى أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب فى الماء ، فلا تفجؤه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه

البدوى لا عهد له بسفينة غير سفينة الصـحراء ــ وهى الجمل ــ ولكن خالدا غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفى مطاياه مشقة المسير • فلم تنقله السفن قليلا حتى جف المـــاء ولصقت بالقاع ، لان الفرس تسامعوا بمسيره فى النهر فأوصـدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه•ولو بدوى غير هذا البدوى فوجىء بهذه الحيلة الحضرية وهذه « اللعبة الهندســـية » لوقع فى حيص بيص وترك السفن فى قاعها ورجع الى مطاياه ••• ولكنه أبى الا أن يبلغ بالسفن الى حيث شاء • فانبعث فى نفر من أصحابه كالبزاة الى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك فى حراستها وفى انتظارالسفن التي ارتفعت براكبيها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير

وحفروا له في الانبار خندقا ثم احتموا وراء الخنــدق بحصن ينظرون اليه من أعلاه،كأنهم يهزأون بهويستعجزونه أن يعبر الخندق وأن يفلح فى علاج الحصن اذا وصل اليه • فلم يلبث أمام الخندق كثيرا ولا قليـــلا بل أمر لتوه بنحر الابل العجاف وألقى بها فى الخندق فسدته ودعا جيشه الى العبور عليها • فاصبح من فى الحصن ســجناء فى يديه ، وتوسلوا اليه أن يرسلهم فى سبيلهم مجردين من السلاح

والمتاع ، وهم يحمدون الله على النجاة من يوم كيوم اليس. فأجابهم الى ما طلبوه

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له فى عين التمر حشودا من تغلب واياد وأصحاب المتنبئة سجاح ، ويوهم الفرس أنه ند للعرب لانه أخبر بهم من غــيرهم ... فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه عـلى تعبئة كاملة ، وبصر بعقة حين دنا من الموقع فقال لصــحبه : اكفونا ما معه فانى حامل عليه بنفسي . ثم احتضنه وحمله أسـيرا وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الاسلوب العجيب فى كل قتال ! وقد كان خالد يعمد اليه كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم، فيصبيب ما أراد

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه فى كل معركة بما تقتضيه وتوحيه اليه

فكان اذا لقى العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروبة : « ويحكم ! أأنتم عرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ »

وكان يعين الحمية الدينية فى جيوشه بما يغرى النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة . فأباح الأسـلاب من سلبها بالغا ما بلغ قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة وقعت فى يديه . وقال لهم يوما بعــد وقعة المذار : « ألا ترون الطعام كرفغ التراب ؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هــذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والاقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه »

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجا للعهود من قبيله ، وكان يصالح المستسلمين صلح

من يعني كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص ...
في عهد أهل الحيرة : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد..
نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به :
عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة
جزاء على أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسسهم الا من كان
منهم على غير ذي يد حبيسا عن الدنيا تاركا لها . وعلى
المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم . وان
غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة ... وكانت كتابة
هذا العهد في شهر ربيع الاول سنة اثنتى عشرة هجرية »

□

وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت
رعايته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين منزراع تلك البلاد.
فللمرة الاولى في التاريخ من قبل بابل ونينوى رأى فلاحو
السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم -
أو مستغليهم - ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم ويشرع
بينهم شرعة المساواة والأمان . وبلغ من رفق الحكم الجديد
برعاياه مسلمين وغير مسلمين أنه تكفل بالعبد اذا تحرر
وبالغنى اذا افتقر وبالعائل اذا انقطع عائلوه . وهذا مثل
مما تكفل به الحكم الجديد في كتاب خالد . قال : « انى
دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم
الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا
على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في اعطاء الجزية .
وانى نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ،
ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم
من العدة. فصار من دفعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحونى
على ستين ألفا وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على
أهل التوراة والانجيل ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم

من العرب ولا من العجم ولا يدلوهم على عورات المسلمين : عليهم بذلك عهد الله وميثاقه . ان أخذه أشد ما أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة ، وان خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم . فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام . فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ، وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه الى صاحبه . ولهم كل ما لبسوا من الزى الا زى الحرب . من غير أن يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك . فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب . وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت المسلمين ، عمالهم منهم . فان طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به ، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين »

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من جانب آخر عزلا فاصلا بين الرعاة والرعية في السواد وفي الديار الفارسية ، فنظرت الدهماء الى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل . فلا هي تعنيهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة . بل هم بهذه العواقب ينعمون واليها يتشوفون

وكانت «وقعة الفراض» آخر أعمال خالد الكبار في العراق

وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معا : دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية • عدا ما فيها من الحوادث التي هي أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة فيعهد اقبالها وتأتيه الأمة في عهد ادبارها • فهو ضربة موت من ناحية وهو من الناحية الاخرى كالضربة التي تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن اليه

«الفراض» في أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظرا متقابلين ، وقد هبط عليها خالد في وثبة من وثباته فتألب عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم وكان وشيكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثته والمتنازعين عليه• وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبي عبيدة : اما أن تعبروا الينا واما أن نعبر اليكم • فلم يصنع خالد صنيع أبي عبيدة بل قال لهم : اعبروا أنتم ان شئتم • وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب ، وأرسل الفرسان والزامحين ليعزلوهم قطيعا قطيعا ويضيقوا عليهم مسالكهم • ثم يحصدوهم حصدا وهم أشبه بالمحكوم عليهم في ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين

على أنه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد « طهر » جوف الصحراء من جموع الاعراب التي تكوفت الى دومة الجندل وعوقت عندها زميله « عياضا » قرابة عام • فلما ترامت أنباء فتوحه الى عياض كتب اليه يستشيره ويستنجده • فكان هو على عادته أول جواب بعد رجع الخطاب ، وكتب اليه يقول :

لبث قليلا تأتك الجلائب يحملن آسادا عليها القاشب (١)
كتائب تتبعها كتائب

---

(١) السيف اللامع القاطع

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة أسبوعين فقطعها هو فى أقل من عشرة أيام ، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء، فجعل القوم جميعا بينه وبين عياض . وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش فى نفسه من نخوة المنافسة وما جاش فى نفوسهم من الوجل والحيرة . وتدافع المنهزمون الى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد اليه وانتزعه وحال بين النازلين فى الحصن ومن حوله . ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء . ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودى بن ربيعة استباها خالد لنفسه وقيل انه اشتراها . ثم بنى بها وأقام معها فى دومة الجندل أيام مقامه فيها

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فامعن القتل فيهم وجعلهم نكالا لغيرهم . ثم قفل الى العراق وهو مطمئن الى غزوة الفراض بأعلى الفرات . فغزاها وفرغ منها كما تقدم . وبقيت له فى العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع . فلم يلبث أن قضاها

بقى على موسم الحج أسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات اللاتى أمده الله فيها بنصره وعونه

أيفوته قضاء الشكر فى هذا الموسم وأداء الفريضة فى موعدها ؟ ولم ....؟ ألخوف من الأعداء ؟ ألعائق من بعد الشقة ؟ ألعذر من الاعذار التى يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء ؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عنها . ففى خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق الى أقصى الحجاز وأدى الفريضة وعاد الى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين الا أقرب خاصته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج فى ذلك العام

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التى تنم عن فرط الثقة بنفسه ولا تنم عن شىء غير ذلك ، ولكنها فى الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على ثقته بنفسه • فقد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية اذا جد فى غيبته طارق داهم أو خطر حازب • وكفى بالمثنى رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم

فى حرب الروم

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام ، واعجاب ، وتكليف ، ووصاة : أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذى أصابه فى حروب الدولة الفارسية ، وأن يسارع الى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد فى الله حق جهاده

وقال له : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا • واياك أن تعود الى مثل ما فعلت ، فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجى من الناس نزعك • فليهنك أبا سليمان النية والحظوة • ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك أن تدل بعمل فان الله له المن وهو ولى الجزاء »

وكتب الى أبى عبيدة فى الشام يخبره بمقدم خالد اليه ، ويقول له فى كلام صريح : « سلام الله عليك • أما بعد فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع • فانى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه ، ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك • أراد الله بنا وبك خيرا والسلام »

فأرسل خالد الى أبى عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه

بكتاب يقول فيه : « أتانى كتاب خليفة الله يأمرنى بالسير الى الشام ، وبالقيام على جندها والتولى لأمرها . والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته اذ وليته . فأنت على حالك الذى كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك . ولا نقطع دونك أمرا . فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك »

□

وأول خاطر سبق الى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس الى حرب الروم انه عمل من أعمال « الأعيسر » كما يسميه ويعني عمر بن الخطاب ، وانه نفس عليه أن ينفرد بفتح فارس فارسله الى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوى الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لانه يتوقع شيئا من صوب عمر ولكنه لا يخطر على بال غيره . اذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدى كبار القواد من أجلاء الصحابة . فهذا مزيد من الفخر يتطاول اليه المتطاول وليس بنقص منه يتعمده لخالد من يأباه عليه . وانما اختار الخليفة خالدا لان العراق كانت فى هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة ، وكان فى جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد ، ولأن خالدا كان أقرب مدد الى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة تضاف الى قواتهم فى حرب الرومان . فاختاره الخليفة وهو يقول : « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتا قل أو كثر اذا نيط به أمر من الأمور . فلما ندب للجهاد بالشام نظر فاذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة الى ستمائة ميل على حسب

الطرق التى يسلكها ، وهى أربع يختار منها أصلحها لانجاز العمل الذى وكل اليه

من هـذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الاسراع المطلوب دون أن تكون للغلبـة عليهم فائدة تذكر فى القتال الحاسم بين المسلمين والرومان

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيـه الماء والكلأ ولكنه بعيد يطول السير فيه

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلأ مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذى سأله خالد : « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال · والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها الا مغرور · انها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها ··· »

وأيسر شىء على القارىء الذى عرف خالدا أن يعلم أى هذه الطرق يسلكه خالد · فما هو بسالك حيث سلك الا الطريق الذى هو أحوج الى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضـاء وأبعدها جميعا أن يتوقع العدو هجوما منه · فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصـعبها وأقصرها ، وهو الذى خوفه الأدلاء منه ، وقال لدليله الأكبر رافع بن عميرة الطائى ــ ولا أحد يغنى غناءه فى السير بتلك المفازة المهلكة وان كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضرير ــ :

« ويحك انه والله ان لى بد من ذلك ··· ان القوة تأتى على قدر النية وان المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله »

ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : « اكثروا من الماء · من استطاع منكم أن يصر اذن ناقته على ماء فليفعل، فانها المهالك الا ما دفع الله »

ثم قال لخالد : « ابغنى عشرين جزورا عظاما سمانا مسان » فأتاه بهن. فظمأهن حتى اذا أجهدن عطشا أوردهن فشربن ، حتى اذا تملأن عمد اليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجترزن

وأشار على خالد أن يقتبط أربعا من هذه الجزور كلما نزل ليسقى الخيل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء. ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم فى المفازة فقال له خالد : ويحك يا رافع ما عندك ؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج فى موضع كان يعهدها فيه ويعهد فيه الماء على مقربة منها . فلم يجدوها . فصاح الرجل بالويل واسترجع قائلا : « هلكتم والله اذن وهلكت لا أبالكم . انظروا انظروا » فلما نظروا وأنعموا النظر رأوا جذرا قد بقى منها وقطع سائرها . فكبروا فرحا وشكرا وحفروا فى أصلها فنبع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذى دونه كل خطر من لقاء الأعداء

وفى ذلك يقول أبو أجيحة القرشى :

لله عينا رافع انى اهتدى
فى مهمه مشتبه الى سوى
والعين منه قد تغشاها الردى
معصوبة كأنها ملأى ثرى
فهو يرى بقلبه مالا يرى
من الصوى تترى له بعد الصوى
فوز من قراقر الى سوى
والسير زعزاع فما فيه ونى
خمس اذا ما سارها الجيش بكى
فى اليوم يومين رواحا وسرى
ما سارها من قبله انس يرى
هذا لعمرى رافع هو الهدى

وسواء صحت رواية الجزور المظمأة أو كان فيها شيء من توسع الخيال فالطريق الذى سلكه خالد معروف والقـــدرة عليه هي موضع العبرة والتأمل فى هــذا المقام • أما نحن فالذى نراه أن خالدا لم يكن لينتظر حتى تظمأ الابل وهى لا تجهد من الظمأ الا فى أيام ، وأن الابل لا تخزن الماء فى جوفها وان لم تجتره دون أن ينصرف منهـــا ، وان عشرين جزورا تمتلىء كروشها بالماء لا تسقى الخيل فى الجيش كله وعدته عشرة آلاف • فلابد من تدبير آخر مع هــذا التدبير تجتمع فيه السرعة الى التخفف إلى الاقدام

والأمر الذى لا شك فيه بعد هذا كله أن خالدا ســـار بجيشه ـ وعدته عشرة آلاف ـ من عين التمر الى قراقر ، ثم من قراقر الى سوى وبينهما تلك المفازة المهلكة ، ثم الى تدمر فالغوطة فبصرى ، فقطع هذه المسافة فى ثمانية عشر يوما لأنه كما قال الشـــاعر كان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد :

« فى اليوم يومين رواحا وسرى ! »

خرج من الحيرة فى أوائل صفر من ســـنة ثلاث وعشر للهجرة ، وطوى تلك المسافة فى تلك الايام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار

□

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين فى الشـــام تشرع في خطة جديدة للتراجع الى الجنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة فى جمع واحـــد ينهض لها ويحول دون الاحداق بكل جيش منها على انفراد

وكان الخليفة قد سيرها ـ بعيد منتصف السنة الثانية

عشرة للهجرة ــ مع أربعة من كبار القواد فى طرق مختلفة الى وجهات متعددة

فسير يزيد بن أبى سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف الى دمشق ، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هــذا العدد الى الأردن ، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلا الى فلسطين ، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ســتة آلاف الى الجابية ، وأمدهم بعكرمة بن أبى جهل فى جيش صغير ليحمى ظهور من يحتاج منهم الى الحماية ويسرع بالنجدة الى من يطلب منهم المعونة

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش فى طرائقها ووجهاتها ، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة ، ثم رغبة الخليفة فى تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها ، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد اذا أوغل فى البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد ابن ســعيد ، فان الجيوش الاربعة يكون كل منهــا مددا لصــاحبه ومانعا للالتفاف به أو منقذا له من الالتفاف اذا وقع فجاءة ٠ وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفرق الحاميــات الرومانية فى مواقع البلاد الداخلية ٠ اذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم، واطمأنوا من جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث عــلى النحو المعروف ، وهى حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة ، وزادهم اطمئنانا أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهى حملة خالد ابن سعيد ، وأنهم عرفوا اشــتغال العرب بحرب الفرس فوقع فى روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفســهم بحرب دولتين عظيمتين فى وقت واحد٠فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش فى زحفها الى الشام أقرب الى توزيع العمل والاسراع فيه ، فان تغير الموقف وعمد الرومان الى حشــد

الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشـــاور والتعاون فى مقابلة هذه الطوارىء ، كما أوصاهم بالرجوع اليه

وقد نجحت هــذه الجيوش فى وجهاتها وتقدم بعضها الى دمشق وبعضها الى حمص وأوغل بعضها الى فلسطين

ثم نمى اليهم أن القيصر يســـتعد لهم بجيش كبير فى انطاكية وجيش آخر فى جوار بيت المـقدس ، وبلغت عدة الجيش الاول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفا، وعدة الجيش الثــانى سبعين ألفا أو نحو ذلك ، ولو نزلنا بعدة الجيشين الى النصف حسبانا للمبالغة وجهل الحقيــقة لما كان نصف هذا العدد بالشىء القليل ، لأنه يربى عـلى ثلاثة أضعاف الجيش العربى كله بعد قدوم جيش خالد اليه، ولم يرتفع به أحد الى ما فوق الخمسين ألفا على أعظم تقدير

فتشاور القواد فيما يصنعون،فاستقر رأيهم علىالتراجع الى الجنوب ليتجمعوا قبـــل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون كل منهم فى بضعة آلاف

ولعلهم يصبحون فىتراجعهم أقرب الى الأمن اذا حاربوا وظهورهم الى الصحراء ، وقد علموا بالأمثـــلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر علىخوضها فى أعقاب جيش كبير أو صغير

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صـــاحب المشورة الأولى بالتراجــع الى الجنوب ، فمنهم من يقول انه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول انه عمرو بن العاص • وهــذا القول الاخير أدنى الى الواقع لأن عمرا كان يتراجع فى الجنوب قبل أن تصل الجيوش الاخرى اليه ، وكان من الموافق لخطته أن توافيه الأمداد فى ميدانه بفلسطين

وأيا كان صاحب الرأى الاول فى هــذا فقد تم التراجع باقرار الخليفة وكان شعوره بحرج المسلمين فى أماكنهم هو

الباعث له أن يستدعى خالدا من العراق الى الشام • فكتب لقواده بالشام يقول : « اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف اذا أتوا من تلقاء الذنوب • فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه »

□

ومن المتعذر جدا تمحيص التواريخ فى ترتيب الوقائع بعد وصول خالد الى الشام • ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر فى « أجنادين » بالجنوب • لان البدء بأصغر القوتين واخلاء الجنوب قبل الانتقال الى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الاصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الاكبر بين عدوين • ولأن معركة أجنادين لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين• مما يرجح أنها وقعت بعد المعركة الكبرى فى اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القواد جيشا كجيش الرومان فى فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا ، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير فى اليرموك

وعلى أية حال هزم الروم فى أجنادين وكانت الوقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين فى اليرموك ، على اختلاف كثير فى التواريخ ، واتفاق فى تصوير خطة القتال

ويحسن بنا قبل أن نستطرد الى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء

فالجيش الرومانى كان أوفر عددا وأكمل عدة بغير خلاف، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والأرمن والعرب

وأجناس أخرى ، وقد يظن لأول وهلة أنه امتاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه في الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح اذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه . لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن آخر،وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التي حسبت من مزاياهم ، فهي الى النقص هنا أقرب منها الى المزية

وقد أثيرت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين ، وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان . فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضيرهم من ناحية ، وليست هي من قوة اليقين المكين

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع الى قيادة واحدة ، وفي صدورهم من حمية القتال كل ما يحفز القلب الانساني الى الثبات والاستبسال: غيرة على الدين وغيرة على العرض وناهيك بالغيرتين ، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا إذا كتب له الفلاح ، وكفى باغراء النعيمين

كان في جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية: بنت أبي بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبي جهل وعقائل أناس من الجند والقادة . وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة « أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن . فان كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه وان رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن ، ورفعن اليه أولادهن وقلن له قاتل عن أهلك وعن الاسلام » ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن : يا نساء المسلمين ! أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه !

ومن أجل هـذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقا فى عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوى شوراه : « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام كلها ويشاركوكم فى جبال الروم » ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه

أما المسلمون فالصلح الذى فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم : الاسلام أو الجزية ، فان لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم فى نفوس أعدائهم مهابة على مهابة • فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور ـ أخى القيصر ـ حسب هذا أنه يهولهم بالبذخ والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم • فأقام لهم سرادقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه ••• فوقفوا عنـــد بابه ولم يدخلوه قائلين : « ان ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباج »

فهالوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه • وأعسر شىء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الايمان أنهم ـ وهم الغارقون فى المناعم واللذات ـ يقاتلون فى سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم فى المناعم واللذات، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية

□

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التى هم مقبلون عليها : هى معركة فاصلة فى مصير الشام ما فى ذلك ريب • وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا فى مصـــير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية • فان

هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته في بلاده الأسيوية والأوربية . وان هزيمة الجيش العربى معناها هزيمة الجيش الأكبر الذى لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد تغرى القيصر الرومانى بارسال قبائل الشام فى أعقاب المسلمين الى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الاسلام ممن لا تزال لهم ترات تغلى فى حنايا الصدور

فاستعد الفريقان غاية ما فى الوسع من استعداد

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما . لأنه يوافق طلبة القيصر من مكان « واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب » ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه منزل محصور بين النهر والبحيرة والوادى وجيش المسلمين . أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم : « أيها الناس ! أبشروا ... حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير »

تحاجز الجيشان أشهرا لا يشتبكان الى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه، وكلاهما قد عبأ طاقته من سلاح الأيدى ولم يزل يعبىء طاقته من سلاح النفوس : سلاح العقيدة والفداء

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة ، ويهونون على اتباعهم بذل الأرواح فى سبيل الملة والدولة والمجد القديم

وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه وعلى العظات يذمرون بها القلوب ، وجعلوا وراءهم حرسا من الأعراض هو أقوى الحراس بعد الايمان

ثم كثرت الحـركة أياما فى جيش الروم فعـلم القادة المسـلمون أنهم مقتربون من الهجوم ، ولم يشأ خالد أن تبتدىء المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد فى نظام واحـد . فصرف همه الأول الى تنظيم الفرق جميعا فى تعبئة واحدة يقودها رجل واحد ، ووجد من زملائه قلوبا مصغية فأجابوه الى ما دعاهم اليه

قال لهم قبل ابتـداء القتال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى : اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فان هذا اليوم له ما بعـده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون . فان ذلك لا يجمل ولا ينبغى ... وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى »

ثم قال وقد سألوه رأيه : « ان الذى أنتم فيه أشد عـلى المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمـدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم . فالله الله !.. ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله : هلموا! فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده . ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها . فهلموا فلنتعاور الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى اليكم اليوم»

فأسندوا اليه قيادتهم يومها ، وكان توحيده القيادة أول خطوة فى طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك

ثم أسرع الى تعبئة قوآده وجنوده على الوضع الذى رآه ملائما للتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب « فى العمق » كما يقول العسكريون فى هذه الايام

فاقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن ، ويزيد بن أبى سفيان على الجناح الأيسر، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب . واتخذ مكانه فى كبة الجمع ، ولجأ الى طريقته التى اختارها

لحرب بنى حنيفة وهى طريقة الكراديس ، لأنها أصلح الطرق للنفاذ في الصفوف، وأدعاها الى التنافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله في حرب اليمامة عكرمة بن أبى جهل وزميله في دومة الجندل عياض بن غنم ، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين ، وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها في القلب ، وعدته ثمانية عشر كردوسا ، رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الرومانى اذا أمعن فى الهجوم والاطباق عليه مع القلب اذا ارتد الى الوراء

وفرغ من التعبئة فعمد الى « القوة الأدبية » يوليها حقها من عنايته الكبرى . وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال ، ودعى كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه فى حركاته ، وجماع هذه العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم فامهلوهم، حتى اذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد ، فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزى بالاحسان إحسانا ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا وقصرا قصرا ، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول »

وخطب مثله معاذ بن أبى جبل وأبو سفيان، وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة فى القلب يرتجزان، واختير يوم القتال فى يوم ريح سموم سافياء فى حمارة القيظ فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق، ولكنه بدأ كما تعودنا فى حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثانية لحميـــة العقيدة ومراجـعة الايمان والاعتصام بنية الفداء

فلما انكشف المســلمون بعـد الهجمة الأولى ثابوا الى عزماتهم بنخوة الايمان ونخوة العـرض والأنفة • فضرب النساء فى وجوه الخيل قائلات : « الى أين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة! »• وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه : «قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم ؟ من يبايع على الموت؟» فبايعه أربعمائة من الفرسان المغـاوير لا يقوم فى وجههم قائم، وصدموا الروم حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم، وقد قتل فى طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان، ولم ينج منهم قط الا جريح مثخن بالجراح

وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدوومشاته، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق ، ورجع المشاة الى الخنادق فلحقهم بها المسلمون ثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون فى هوة الواقوصة أو وادى الرقاد • وقيـــل ان موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم فى حومة الوغى ، لأنهم قدروا بثمانين ألفا ســقطوا فى الوادى فرادى وجماعات • اذ كان بعضهم يقرنون أنفسهم فى السلاسل كل عشرة فى سلسلة واحدة تثبيتا لأقدامهم وتيئيسا من الفرار • فاذا بالوجل يفل حديد السلاسل كما فل عزائم القلوب • وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا فى أماكنهم ينتظرون الموت • فكأنهم قد فروا قاعدين !

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن

يودع الشام الى عاصمة ملكه المتصدع وداعا كما قال ليس بعده لقاء

العزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلا من أبطال التاريخ اذا كان له « دور تاريخى » يقضيه ويتسم بملامحه ودواعيه

وآية انقضاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الاعمال المقدورة له قمتها العليا التى لا قمة وراءها ، وأنه يعدو هذا الدور فاذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثل حقه فى أدوار التاريخ ، أو يعدوه الى أعمال يغنى فيها الآخرون مثل غنائه ، وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابه

وقد بلغ خالد فى معركة اليرموك قمته العليا التى لا مرتقى بعدها لراق : قمع فتنة الردةوضرب دولةالأكاسرة ضربته الدامغة ووحد قيادة المسلمين فى حرب الرومان فصدهم الى ما وراء حدودهم • وخلت ميادين الشام بعدها من أعمال يصح أن تسمى بالاعمال الخالدية • فهى بين حصار أو مراوغة أو تسليم • وانما يراد خالد لتحطيم قوى الاعداء التى تعز على التحطيم

وان يكن من عمل « خالدى » فى ميادين الشام بعدمعركة اليرموك فهو عمله فى مرج الروم • ثم عمله فى قنسرين

ففى مرج الروم كان هو وأبو عبيدة ينازلهما قائدان رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالد ، فتسلل توذر تحت الليل ليفجأ الجيش العربى عند دمشق بقيادة يزيد ابن أبى سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين • فاتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجآته من خلفه قبل أن يفاجىء يزيد بن أبى سفيان • فأوقعاه فى الفخ الذى نصبه ،

ولم يرجع خالد الى أبى عبيدة الا وتوذر مقتول وجيشه مبدد كما قال :

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وفى قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونها فطاولوه وأبرموه ، فقال لهم محنقا : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا » ، وأبى أن يصالحهم بعد ذلك الا على تخريب المدينة ودك حصونها ، فختمت بذلك ضرباته الخالدية

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره التاريخى » أكمل وفاء ، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شىء ولا تغير مجرى الحوادث فى أعقاب هزيمة الرومان

أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففتحت بقية فارس وفتحت مصر وشطر من افريقية الشمالية ، وكتبت بذلك « أدوار تاريخية » أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العاص ، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم فى المقدرة ولا يقلون عنهم فى المقصد والنية ، وكل زيادة فى عمل خالد لا تضيف اليه مجدا فوق مجده ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم الاسلام أيديا كثيرة تعمل له وتدفع عنه ، وليس هو بمستغن عن تلك الأيدى الكثيرة بيد واحدة ، بالغا ما بلغ بها الرجحان والاستعلاء

قلنا فى أول هذا الفصل أن انقضاء « الدور التاريخى » ببطل من الأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره الى أعمال يغنى فيها الآخرون فى هذا الباب مثل غنائه وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابه ، ونزيد على هذا أن غناء الآخرين فى هذا خيرا من غنائه لهو أولى أن

يدل على انقضاء دوره وانتقاله الى من هو أحق به وأخلق

وفي ميدان الشام ــ بعد معركة اليرموك ــ كان أبو عبيدة ابن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد • لانه موقف التسليم والمسالمة واستلال الحقود وضمد الجراح وتقريب القلوب ، وفي جميع أولئك يتسع المجال لهوادة أبي عبيدة ويضيق بضربات خالد • فأبو عبيدة يسرع الى المسالمة اذا فتحت له أبوابها ولا يبطىء عن الحرب اذا وجبت عليه أسبابها ، فان كانت بالمسالمة جدوى فذاك ، وان كان يوم الضربات الخالديات فهي لديه يرمي بها في مراميها • وانما يكون العمل الاول هنا لمن يسالم ويتقبل التسليم ، ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على الذين يلجون في العداء كأهل قنسرين ، فلا يسلمون الا بتخريب الديار ودك الحصون

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبي عبيدة فيقبلون على التسليم اليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حينا ويسخط منه حينا كما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبي عبيدة في العفو عن أهلها • فانه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبي والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة ، ولو لا أنه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على أهل قنسرين

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا باسناد الأمر الى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقدور ، وان كان تلاقيا لم يجر على قصد مرسوم

▭

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان ورأى الفاروق في أبي عبيدة بن الجراح معروف • فقد

كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الأولين، وقد هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبي عليه السلام وقال وهو يجود بنفسه: انه لو كان حيا لعهد اليه ولم يلجأ الى مجلس الشورى الذي وكل اليه أمر انتخاب الخليفة بعده

وتحدث عمرو بن العاص مرة الى الفاروق فى رآسة الجيوش الموجهة الى الشام فأجابه فى مقال صريح : «... انه ليس على أبى عبيدة أمير ، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبى عليه السلام قال فيه : أبو عبيدة أمين هذه الأمة »

وكما عرف رأى الفاروق فى أبى عبيدة عرف كذلك رأيه فى سابقة الاسلام والغزو على الاجمال. فانه خالف الصديق فى التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق فى توزيع الأرزاق والأنفال ، وجعل للرجل نصيبا يختلف باختلاف سابقته فى الاسلام والجهاد ، لأنه « لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، ولا يسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى الى القبلتين ومن أسلم عام الفتح خوف السيف »

فاقامة أبى عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره . وبخاصة حين تكون امارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول . انما هى اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوما بعد يوم

وبهذه المثابة تكون ولاية أبى عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون « قضية » بين الفاروق وخالد على الصورة التى هول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محورا للجدال والتنقيب عن الاسباب والاقوال

واذا نحن تجاوزنا النظر الى الموضوع من جانب هذه السنة العمرية فولاية أبى عبيدة كانت فى اعتقادنا أصلح

الولايات للشام فى تلك المرحلة التى انتهت اليها الحرب بين المسلمين والروم

فما نظن أحدا تفوته حاجة الشام في مثل تلك المرحلة التى انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة . وهـذه مهمة وال يحسن الحرب ويحسن التوجيه اليها فى مناسباتها ، وليست مهمة قائد عسكرى يجرى الأمر على سنة السطوة العسكرية ، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء فى ضربة طاحنة ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والاحـــراج ، كما كان دأب خالد فى بطشاته التى لا تبقى بعدها بقية لغير الاجهاز

واذ تكون هذه هى المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك فلا خلاف فى أى الرجلين أولى بالولاية عند ذاك : أبو عبيدة بن الجراح أو خالد بن الوليد ، ســـواء أكان الخليفة على رأى الفاروق أم كان على غير هذا الرأى فى أمين الأمة وفى سوابق الاسلام والجهاد

□

ونما الى الفاروق بعد ذلك أن خالدا وعياضا أغارا عـلى بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب ، وأن الأشعث بن قيس قصد خالدا ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم ، وأجاز آخرين من « ذوى البأس وذوى الشرف وذوى اللسان »

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب الى أبى عبيدة « أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من اصابة أصـابها ؟ فان زعم أنه من اصابة أصابها فقد أقر بالخيانة ، وان زعم أنها من ماله فقد أسرف » وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم اليه عمله ــ وكان يومئذ يلى أمور قنسرين ــ وأن يقاسمه ماله نصفين

فصدع أبو عبيدة بالأمر وجمع الناس وجلس على المنبر ودعا بخالد فسأله : يا خالد ! أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من اصابة ؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة . فوثب اليه بلال مؤذن النبي عليه السلام وقال له : ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تنـــاول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه ، وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من اصابة ؟ فقال : لا ، بل من مالى . فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا»

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيـــدة : ان هذا لا يصلح الا بهذا . فقال خالد : أجل . ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك

ولما علم خالد بعزله ذهب الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم ثم ذهب الى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال فى بعض خطبه : « ان أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى اذا كانت بثنية وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى » . فنهض له رجل من السامعين فقال : صبرا أيها الأمير ! فانها الفتنة. فما تردد خالد أن قال : « أما وابن الخطاب حى فلا »

ثم قصد الى المدينة فلقى الفاروق فقال له : «لقد شكوتك الى المسلمين . وبالله انك فى أمرى غير مجمل يا عمر ! » فسأله الفاروق : من أين هذا الثراء ؟ قال : « من الأنفال والسهمان . ما زاد على الستين ألفا فلك » فزادت عشرون ألفا فضمها الى بيت المال . ثم قال له : « يا خالد والله انك على لكريم ، وانك الى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد على شىء » وأرسل الى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنـــوا فيها باسمه : « انى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا اليـــه ويبتلوا . وألا يكونوا بعرض فتنة » .

تلك قصة خالد والفاروق

وهى قصة تؤلم وتؤسف ، الا أن الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التى لا محيد عنها ، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة • لان فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة فى نفس عمر أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء ، أو لغير سبب من تلك الاسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق الى الوهم كما سبق الى وهم بعض المؤرخين أن عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة مرجعها الى الصراع بينهما فى أيام الصبا ، وان خالدا صرع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجدا عليه

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم الى ظن من هذه الظنون • فليس بين رجال التاريخ جميعا من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب ، لانه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس فى نفسه نية دخل أو ثأر قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته • فكذلك صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص ، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة • وقد عزل زياد بن أبيه ثم قال انه عزله « لأنه كره أن يحمل

على الناس فضل عقله » وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو أنه من قريش • ولقد تبين بعد أنه من قريش

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه فى الأموال ، وبذلك أشار على أبى بكر فوافاه الحساب من كل وال الا خالدا أبى وأغلظ له فى الجواب حيث قال : « اما أن تدعنى وعملى والا فشأنك وعملك »

فلما بويع عمر كتب الى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيرا الا بأمره ، فأحاله الى ما جرى به العمل قبله• فلم يطقها عمر وقال : « ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه »

هذا الى الخلاف بين سنن عمر فى سياسة الناس وتصريف الشؤون وسنن خالد التى طبع عليها • فعمر كان يحب الأناة قبل القتل والقتال ومن ثم كان انكاره لمقتل بنى جذيمة ومقتل مالك بن نويرة ، وعفوه عن أسرى السواد خلافا لما صنع بهم خالد فى معركة أليس أو نهر الدم كما سميت بعد ذاك • وقد حرم عمر « قيس بن سليط » أن يقود جيشا هو كفؤ لقيادته قائلا له : « لولا أنك رجل عجل فى الحرب لوليتك هذا الجيش • والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث »

واذا كان عمر قد أوجس من عقل زياد بن أبيه وهو مجهول النسب فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر• انه لعظيم النزعة الى الاستقلال وانه لمن بنى مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين ، وله صهر فى سائر القبائل والبطون ولأبنائه أخوال فى بنى تميم وبنى حنيفة ، ولشهرته سحر فى نفوس الناس يفعل الأعاجيب ، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسابه ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور فى دولة الاسلام• فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة

ودولةالقياصرة رجع الى المدينة يوما فاذا هو يغرز فيعمامته السهام ويدخـل المسجد بدرع القتال • فبعد غلبته عـلى الأكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره فى الأمصار ماذا يجرى لو وهن الحكم يوما بعد « ابن الخطاب » ••؟

أما « وابن الخطاب » حى فلا كما قال خالد • ولكن ابن الخطاب لا يدوم ، والعواقب لا تنكشف ، وعزل خالد نقص يعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملواكما عمل ومن أثرهم أن يثوب الناس الى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن بغيره

أما الاحتمال الآخر ـ ان حدث ـ فالخطر فيـه عظيم والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل

وهذا كله فضلا عن مرد العزل الى القسطاس الذى يرد اليه حساب جميع القواد والولاة • ولم يفت ذلك خالدا بعد هدوء الغضب والمثوبة الى الرأى،فقال فى مرض وفاته لأبى الدرداء : « قدكنت وجدت عليه فى نفسى فيأمور لماتدبرتها فى مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر عـرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل • كنت وجدت عليـه فى نفسى حين بعث الى من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد بدرا • وكان يغلظ على وكانت غلظتـه على غيرى نحوا من غلظته على ، وكنت آدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالى قريبا ولا لوم لائم فى غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر على عنده وما كان ذلك الا على النظر : كنت فى حرب ومكابدة وكنت شاهدا وكان غائبا فكنت أعطى عـلى ذلك ، فخالفة ذلك من أمرى »

ولقد توفى رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وانفاذ عهده الى عمر بن الخطاب

ونحن اليوم ننظر الى القصة بعين التـــاريخ فنرى كما أسلفنا أن الفاروق انما ختم دورا ختمه القدر وانقضت به الحوادث • فلم يكن بعد القمة التى ارتفع اليهـــا خالد فى ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق • ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع غير تلك القمم التى تسنم فيهـا صعدا من غلبته على طليحة ومسيلمة الى غلبته على القياصرة والأكاسرة : تلك هى قمة التجمل والاخــلاد الى الواجب الأليم يوم عزله • فهى والله مما يحسب له الى جانب قممه البواذخ ، قمم العظيم الظافر الجسور ••• وأين لولا عزله كنا نبصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع !



عبقرية الحربية
ومفتاح شخصيته

عبقريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى ، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه ، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فاذا بهم يردون النصر فيها الى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة

كسب بعض المعارك لأن الاقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الاقواس

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار ، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق في طولها على حسب الصفوف

وفي بعض المعارك كان الفرسان في الوسط فقيل ان هذا كان من دواعي النصر العاجل ، وفي معارك أخرى قيل ان دواعي النصر انما ترجع الى قيام الفرسان على الجانبين

وكثيرا ما يقال ان اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كفيل بالغلبة في بعض الميادين ، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال ان تربص الفرسان بمعزل عن القتال الى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال ، وربما قيل ان ظهور الفرسان في ميدان يضيق عن حركات المناورة جنى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل في صفوف هؤلاء وهؤلاء

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر الى قاعدة موجزة فيقولون كلاما يحسن الاطلاع عليه ، ولكنه كلام يقرؤه القائدان معا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التى توجز لك البلاغة الشعرية فى كلمات ثلاث : وهى الوزن واللفظ والمعنى • ولا خطأ فى هذا الايجاز ، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان ، وأن القائد الموفق هو الذى يلمح هذه الفروق فيعمد الى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالقدر اللازم ، فلا ينقص أو يزيد ولا يتقدم ولا يتأخر،ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق

واذا كان كل شىء فى المعركة يتوقف أحيانا على كذا أو كذا من الخطوات فى السبق الى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الأشبار فى طول الرماح ، وكذا أو كذا من التفاوت فى سرعة القذيفة هنا أو هناك ، وكذا أو كذا من الحركات الى اليمين أو الى الشمال والى الامام أو الى الوراء ، فتفصيل أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل ، لأن اثبات الفوارق بين المعسكرين فى الاسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور • وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالاجمال دون التفصيل

واجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال : وهى الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير

وأنه كان يضع الخطة فى موضعها ساعة الحاجة إليها •

فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانا بغير كمين ، وكان يستخدم التوزية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعى والأحوال

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار والاحتلال

وعلم أن الخبر قوة وسلاح • فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية يعززها ما استطاع فى جيشه ويضعضعها ما استطاع فى جيش عدوه

فكان هو نفسه مادةلهذه القوة الادبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة ، وتشيع فى نفوس أعدائه فيسرىاليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة

والى هذا كان يعتمد على قوة الايمان وهمة الأمل فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفى أثناء القتال ، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذى هو ضرب من العمل،فاذا قال : « ان الصبر عز وان الفشل عجز وان الصبر مع النصر » فليست هىأصداء تمر بالهواء ولكنها هى العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه الى كل مسمع وجنان

والى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة فى صدور جنده وأعوانه ، فيدعوهم الى التمايز والتناظر لينفث فيهم مع عزيمة الايمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار

ويتخذ من الغيرة على العرض مددا لهذه العزائم التى

تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة ، فاذا بالرجل الفرد يبلى فى قتاله ما ليس يبليه عشرات.

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد الى هذا المقتل فى منازلاته للمستبدين والطغاة • فانهم في جيوش الأمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون الى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم الى مقام القطيع السائم• فاذا أصيب القائد فى الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها ، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التى يجمعها « الخبراء » فى عصورنا هــذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات

قرأنا فى كتاب « فن الحرب اليوم (١) » لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء : « عند بحث هذه المسألة ينبغى أن نحضر فى أذهاننا انه مع استثناء قليل لم يكن ثمة الا نوعان من السلاح سيطرا فى حومة القتال ، وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع ، أى النبل أو السهم أو الرصاصة من جانب ، والهراوة والسيف والرمح من الجانب الآخر • ومجمل ما يقال بعد هــذا أن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكردوس أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح الضارب • لأن الرماة بالقذائف يحتاجون الى مدى مكشوف ، وانما يتأتى الضرب فى العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات »

ان خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفته شىء بفوآته عنه، لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية فقاتل بالصفوف حيث تغنى الصفوف وبالكراديس حيث لا تغنى الا الكراديس

---

(١) Warfare Today تأليف الاميرال باكون والجنرال فلر ومارشال الطيران باتريك بلايفير

وفي هـــذا الكتاب أيضا يقول المؤلفون : « يتضح مما تقدم أنه في حملات السلاح الضارب هناك أمرآن ضروريان: وهما الاستطلاع وكتمان الحركات ، والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو ومن كتمان الحركات أن تحول بينـه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أى موضع تكون »

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث فيقولون : « وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبـــل الحركات الأولى وفي خلالها ، وتتقدم الكراديس أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف به حين تدعى الى الهجوم »

وهذه هي ربيئة خالد للاستطلاع ، ومسيره «على التعبئة الكاملة » التي يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذى كان يسير عليـــه ، ثم يدخل فى التحام قريب ولا يطيـــل فى موقف التقاذف بالنبال والسهام

ونقرأ فى كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة (١) » لمؤلفه ونترنجهام الذى كان محررا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة : « ان سرعة الحركة وقوة الاصـــابة وتدبير الوقاية هى الآن كما كانت فى كل زمان بعض مفاتيح النصر التى لا شك فيها، فاذا كسبت المعازك أحيانا بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة البارعة ، فهذه المزايا انما تستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى قوة الاصابة أو فى تدبير الوقاية »

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصـــحراء المخيفة ، ويضمن المفاجأة بهـذا الاقتحام ، ولا يزال واثقا بالوقاية

(١) Weapons and Tactics تأليف Wintringham

حيثما حارب وظهره الى الصحراء ، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام

ووضع الخبير الحربى المشهور ليدل هارت (١) كتابا مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه في قوله : « ان التحرك فيالوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة ، وفيالحرب ـ كما فى المصارعة ـ انما يتاتى لك أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفادقوتك أنت استنفادا لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمك • ولن يتاح النصربهذه الوسيلة الا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحو من الانحاء • وقد يضعف الحسم في النتيجة مع ذاك • وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا في عصر واحد أن جميع الحروب الحاسمة على التقريب أن الاخلال بتوازن العدو نفسيا وماديا هو المقدمةالتى لا محيص عنها للقضاء عليه »

وهذا الاخلال بالتوازن هو الغاية التى كان يتوخاها ابن الوليد اما بالهجوم من جهتين أو ثلاثجهات ، واما بالمفاجاة التي لا تتوقع بحال من الاحوال ، واما بالكمين الذى يدخل اليأس على العدو فى ساعة حرجة ، واما بالتطويق من حيث لا ينظر التطويق

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن ، وكل ما يزلزل أقدام الانسان فيالحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان ، ولكن القدرة حق القدرة هي معرفة الوقت ومعرفة الوسيلة ، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة،وبهذا دون غيره تتجلى « معرفة » القواد الملهمين

---

(١) The strategy of Indirect Approach تاليف Liddell Hart

وقال خبير حربى آخر هو أرثر برنى (١) فى كتابه « فن الحرب » معقبا على حروب الفرس واليـونان : « كانت قوة الفرس ، جنودا ، قائمة على الخيالة والرماة • وكانت طريقتهم فى القتال أن يمطروا العدو سهاما ، ثم يجترفوه بحملة من الفرسان فى الوقت اللازم ، وأفلحت هــذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين • لكنها خابت مع اليونان، وكانت التبعة فى خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية ، فاذا ما استطاع الجند الاغريق أن يقتربوا ـ وكل شىء يتوقف على هذا ـ تناولوا المشـاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة •• »

ولو عمم هذا الخبير القول لوجب أن يقول ان الذى خيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذى خيبها مع العرب من أيام ذى قار الى أيام خالد بن الوليد، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجنة التى احتمى بها العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل من الفيلة فى بعض الاحيان، وقد قيل فى الأمثال الشعبية التى هى أصـدق من قواعد الخبراء « الذى تغلب به العب به » وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجنـدى الذى ينافح عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف • فلم يلق الفرس ولا الروم الا فى اشتباك والتحام

وقد صح هنا رأى ونترنجهام مؤلف كتاب « الأسلحة وفنون التعبئة » الذى سبقت الاشارة اليه حين قال : « ان بعض الجماعات الانسانية بطيئة التغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الأسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب الى السماء، فانها تنتظم على سنن فحواها أن التغيير لا ينبغى وان العادات المأثورة كلها حسنة قويمة ، وان كل ما يعمل

---

(١) Arthur Birnie فى كتاب The Art of War

الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان ، وربما لاذت بعض الأمم التى هى أقرب الى التـــقدم بفترة من فترات الراحة تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم • فاذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتـــال برزت وفى رؤوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها ، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بســـلاح جديد أو معركة جديدة ، ورسخت عندهم أصول رجعيـــة للحرب أولم تكن لهم فيها أصـــول على الاطلاق • ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقا للترتيب الذى وضع منذ عهد بعيد • وان هذه الجماعات لتخرج جيوشا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التى يسهل عليها اتخاذ الاساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ »

ولو شاء صاحب هذا الرأى لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الأسيوية ، لأنهـا كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون ، وهى على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد

□

وجملة القول أن خالدا كان يحـــارب بالقريحة الملهمة أناسا رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية • فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم فى الميدان على نحو مرســـوم كأنهم قائمون فى مراتبهم بديوان التشريفات ! وكان خالد يلبى الضرورة عفو الســاعة فى ترتيب كل كتيبـــة وكل سلاح • فاذا بدا له أن الخيالة لا تجدى فى الحركة جــدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات فى أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصـــاب والجوارح لمراكز التنبيه فى الدماغ فيترجل وقد ترجــل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه فى كره وفره وهجومه ودفاعه

وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة فما هى الا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها الى قائدها المختار : تمايزوا أيها الناس ! فاذا هم بعد لحظات متمايزون

وكانت مادة القتال التى يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه • فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو الله رب القائد والمقود ، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون فى غزواتهم أن يكروا بعد فر وأن يجتمعوا بعد تفرق • فهم يحسبون النكوص ضربا من التحفز للوثوب • أما خصومه فكانوا يتساقطون كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة اذا سقط منها الحجر الأول•••فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط

ومن ثم كان نمطا فريدا بين قواد التاريخ ، لانه يمزج فن البداوة بفن الحضارة ، وكان يقتبس ويجدد بالرأى والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة «القبة والأعنة » يصح أن تسمى غريزة الميدان

وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات ، وان كنا نعتقد أن القائد العبقرى تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول فى الزمن القديم تقدمه الى المرتبة الأولى بين أكبر القواد ، ومنهم الاسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوا كعدوه فى ميدان كميدانه • فالاسكندر فى وقعة «أربل» هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة ، وبلزاريوس فى وقائع ارمينية هزم جيشا فارسيا تقدر عدته بأربعين ألفا أو قرابة الأربعين•••والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معا فى هذا الميدان ، لأن

الاسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفا وبلزاريوس كان يقود نيفا وعشرين ألفا ، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة فى ذلك الزمان

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشا أعظم من الجيوش التى تصدى لها القائدان الكبيران، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده • وزاد على ذلك أنه انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم: ومنهم الرومان فى أكبر الميادين ، وهو ميدان اليرموك

فمكان خالد فى التاريخ العسكرى هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية • وفيه من ملامح القيادة فى العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة فيه ، وانه كان كما يقال قائدا من فرع رأسه الى قدميه

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال : اطلبوها • فبحثوا ونظروا فلم يجدوها • فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا فى طلبها حتى وجدوها ، فاذا هى خلقة لا تساوى شيئا • فسئل عن ذلك فقال : « اعتمر النبى صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم الى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة ؛ فلم أشهد قتالا وهى معى الا تبين لى النصر »

رحمه الله ! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب ••• فما زال معلوما عن كبار الجند أنهم يأنسون الى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت • وما فى ذلك من عجب • فليس أحوج الى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء

وقال خالد فى آخريات عمره : « ما ليلة يهدى الى فيها

عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد ٠٠ »

هذا حبيب الحرب الذى يهواها وتهواه٠فله منها الصفوة التى لا تصطفى بها أحدا من الطلاب والقرناء على بغضاء

مفتاح شخصيته

تقدمت الاشارة الى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب فى ملامح الوجه وطول القامة ، وانهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الامر على قصير النظر وهو يتكلم اليهما ، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن انه يخاطب خالد بن الوليد

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة الى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ، فكلاهما يجوز أن يقال فيه انه « جندى » بالفطرة وان « مفتاح شخصيته » هو السليقة الجندية ، فاذا أحضرنا فى أخلادنا كلمة « الجندى » أو الجندى المطبوع لم نجد فى ابن الخطاب ولا فى ابن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة فى معنى من معانيها

وبين الرجلين فارق لا خفاء به فى الخلق والتفكير

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جندى مطبوع على الخلائق الجندية . ولكن ابن الخطاب تغلب عليه ، من مزاج الجندى ، ناحيته الروحية أو ناحية الضمير ، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب

وأصح من هذا أن نقول ان عمر كان جنديا فى أخلاقه

الوازعة الحاكمة ، وأن خالدا كان جنديا فى أخلاقه الدافعة الهاجمة . وفى الجنود كما لا يخفى هذه الأخلاق وهذه الأخلاق

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله انما هو قبل كل شىء فارق بين نفسين ، أو بين رجلين ، أو بين « شخصيتين »

لكن هذا لا يمنع أن يكون فى الوقت نفسه فارقا بين « قبيلتين » وبين أسرتين وبين نشأتين . فان الفوارق بين بنى عدى قبيلة عمر وبين بنى مخزوم قبيلة خالد لخليقة أن تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين

فبنو عدى ـ آل عمر ـ كانوا فى الجاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالفصل فى الخصومات ، وقد ذاقوا كما قلنا فى « عبقرية عمر » « طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس ، وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة الدم ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس الى عدد أقربائهم . فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه . . . »

أما بنو مخزوم ـ آل خالد ـ فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء ، وكانوا فى الجاهلية موكلين بالخيل والسلاح ، معتزين بالعتاد التليد ، والعدة والعديد

وكان ثراؤهم يملى لهم فى أسباب الترف والنعيم كما تملى لهم فيه مزية أخرى من المزايا التى تكفلها للقبيلة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة ، وتلك المزية هى جمال النساء

فقد كان يقال ان « المخزوميات » رياحين العرب

وكان فى رجالهم ذلك الغزل الذى أخرج منهم شاعره

الاول عمر بن أبي ربيعة ، بل أخرج منهم غزلين ظرفاء حتى فى النساك والأتقياء

جاء فى كتاب الأغانى عن أبى السائب المخزومى « أنه كان رجلا صالحا زاهدا متقللا يصوم الدهر ، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلا . فوجه ابنه يوما يأتيه بما يفطر عليه . فأبطأ الغلام الى العتمة . فلما جاء قال له : يا عدو نفسه ! ما أخرك الى هذا الوقت ؟ قال : جزت بباب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته ، فقال : هات يا بنى ، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك ، ولئن كنت أسأت لأضربنك . فاندفع يغنى بشعر كثير :

ولما علوا شغبا (١) تبينت أنه
تقطع من أهل الحجاز علائقى
فلا زلن حسرى ظلعا . لم حملنها
الى بلد ناء قليل الأصادق

فلم يزل يغنيه الى نصف الليل . فقالت له زوجته : يا هذا . قد انتصف الليل وما أفطرنا . قال لها : أنت طالق ان كان فطورنا غيره . فلم يزل يغنيه الى السحر . فلما كان السحر قالت له زوجته : هذا السحر وما أفطرنا . فقال : أنت طالق ان كان سحورنا غيره . فلما أصبح قال لابنه : خذ جبتى هذه وأعطنى خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما . فقال له : يا أبت ! انت شيخ وأنا شاب وأنا أقوى على البرد منك . قال : يا بنى ! ما ترك صوتك هذا للبرد على سبيلا ما حييت »

واطرح كل ما فى هذه القصة من المبالغة والاغراق تبق منها بقية كافية لبيان مكان الغزل من نساك بنى مخزوم ، فضلا عن الشعراء والظرفاء

وندع القبيلة الى الأسرة فيتراءى لنا فى النظرة الاولى

(١) سهل بين طريقى مصر والشام

ذلك الاختلاف الذى لا بد منه بين معيشة الخطاب. ومعيشة الوليد . أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن فى ملمسه وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين

لكنه مع هذا فرق فى المعيشة لا يتغلغل الى بواطن الطباع. انما الفرق المتغلغل الى بواطن الطباع بل الى أعمق أعماقها هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة يتكشف لنا « قلق عصبى » فى هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف فى أفراد منها واعتدل بعض الاعتدال فى آخرين

فعمارة بن الوليد هو الذى بلغ منه الاضطراب أن يراود امرأة فى محضر زوجها ، وأن يجترىء على حرم النجاشى بالمغازلة ثم يجترىء بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة ، ثم ينطلق مع الأوابد فى الآجام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قول لا يخفى مدلوله فى لغة العصر الحديث

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد انه كان يتفزع فى نومه . فذاك اثر من آثار « أعصاب الأسرة » كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات فى أبنائها ، وان كان يجمح بهم فى حين ويكبح فى حين

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه كما جاء فى كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة اهلها . وقد كانت علة المغاضبة أن أبا عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبى والاغتنام والقصاص

وكانت فى خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة . وفى التعليل الذى بلغنا اشارة الى الكثير الذى لم يبلغنا . فقد غاضب أبا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر . وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه :

« لقد هممت الا أكلمك أبدا » فأصلح بينهما النبى عليه السلام وهو يقول لخالد : « يا خالد ! مالك ولعمار . رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا » ثم يقول لعمار : « ان خالدا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار »

فهذا الفارق بين الأسرتين ، وذلك الفارق بين القبيلتين ، مفسران صالحان لاختلاف لونى « الجندية » فى شخصية الرجلين العظيمين : عمر الى الجندية الموزوعة وخالد الى الجندية المدفوعة ، وعمر الى الشظف المختار وخالد الى المتاع المباح

ولا يرد الينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذى أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرات ، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس فى عذره والثناء عليه ، ونعنى به الخليفة الصديق .

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهة وبهجة الحياة . فلم يفرغ من الحرب قط الا انقلب منها الى واد ظليل فى صحبة زوج محببة اليه . فقضى فى وادى الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيه بنت مجاعة وبنت المنهال . وقضى فى دومة الجندل أيام الهدأة بين الوقائع فى صحبة ابنة الجودى الحسناء ، واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز . وأغضب الفاروق لأنه « كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بثخين معجون بخمر » فلما لامه الفاروق فى ذلك قال : انا قتلناها فعادت غسولا غير خمر ، ثم قال يخاطب عمر :

سهل أبا حفص فان لديننا
شرائع لا يشقى بهن المسهل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه
حميا الخمور ، والخمور تسلسل

وفى كل أولئك هو سليل حق لبنى مخزوم ولبيت الوليد ،

وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفزرة التى تجنح به الى المتعة فى أيام الدعة كما تجنح به الى البطش فى مقام الجلاد والعناد ، وتفسر لنا الجنـدى الذى تميل به القوة الحيوية تارة الى لقاء الحسان وتارة الى لقاء الأقران

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال : « ما ليلة يهدى الى فيها عروس أنا لها محب أو ابشر فيهـا بغلام أحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد »

فالحرب عنده اشتهاء ، والعروس غاية المتاع

والحرب فى رأيه حسناء تشتهى أبدا ولا تشيب كصاحبة الزبيدى التى تكون فى مبدئها « فتية تسعى بزينتها لـكل جهول » ثم تصبح :

شمطاء جزت شعرها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيـــــل

وأيا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير فهى متعة القوى اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم :

هى متعة المسافر الذى يستريح الى الواحة لينفض عنه الجهد ويتزود منها لجهد جديد ، وليست متعة المتهافت الذى يتوق الى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين اليها ولا يفيق من سكرتها

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد ، فاذا طالت عافهـا وبرم بها واجتواها ، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها . فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم ، وسماها «سنة نساء» لأنها كانت سنة راحة من العناء . . . مع انها كانت راحة المتربص المتوفز ، وكانت راحة تتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ليأخذ من الشدة بأوفر المقادير

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شيء ، وما بقي من الطبيعة للرياضة فقد أتته الرياضة بعزيمة الجبابرة التى لا تلين : باستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب ، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب أياما بعد أيام

لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس فى ساعة الموت انها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير : « لقد طلبت القتل فى مظانه ، فلم يقدر لى الا أن أموت على فراشي ... ولقيت الزحوف وما فى جسدى شبر الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء »

واقرب شيء أن يلاحظ فى سيرة خالد ـ من نشأته الى وفاته ـ أن هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعا بالشر والسوء ولا ولعا بالضغينة والبغضاء ، فكانت عداواته كلها عداوات جندى مقاتل ولم تكن عداوات مضطغن آثم .. ولم يعرف قط عنه أنه حمل الضغينة لأحد من الناس . ولو أنه اضطغن على أحد لكان أحق الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطاب ، لأنه عزله وشطر ماله وأبقاه فى العزلة سنوات ، ولكنه لم يعمل عملا واحدا ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه . وقد سامحه والتمس له المعذرة وعلم أنه أراد وجه الله بما حاسبه عليه ، وكان أشد ما قاله فيه « الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب الى من عمر ، والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض الى من أبى بكر ثم ألزمنى حبه » وربما ذكره وهو غاضب فسماه « الأعيسر ابن أم شملة » فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها على الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المغلوب فى لعبة لا فى غرض عظيم يقعد ويقيم

وقد يمكن كثيرا أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة ، وانها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء فى سبيل الغيرة القومية أو سبيل الايمان والضمير ، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها وطبع فى نفسه على مزاج يألف القتال ولا ينفر منه ، وليس فى المجتمعات الانسانية التى تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث الى النفرة من القتال ، ولن تزال القدرة على الحرب شرفا وشجاعة الى آخر الزمان ما دام فى بنى الانسان من يحمل السلاح للعدوان والبغى والتلصص والمراء ، فيتقيه بنو الانسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والانصاف

وعلى كثرة من قتل خالد فى حروبه لم يكن يقتل أحدا قط وهو يشك فى صواب قتله وان أخطأ وجه الصواب . فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره فى « نهر الدم » كانوا يستحقون عنده القتل قربانا الى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والاصرار

أما اذا شك فى صوابه فهو يستكثر المساءة الى رجل واحد فضلا عن الجحافل والقبائل ، ويسبق الى الرفق رجلا كأبى عبيدة عرف طول حياته بالرفق والرحمة والأناة . فيقول له وقد تناول رجلا بشىء : « انى لم أرد أن أغضبك ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان أشد الناس عذابا يوم القيامة أشد الناس عذابا للناس فى الدنيا »

فهو مطبوع على عداء الجندى المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر فى صغائر العيش وسفساف الأمور

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذى يبتلى به من لا يعقلون هجوما الا كهجوم الريح أو فرارا الا كفرار الحيوان

فقد كان يقدم عن علم بمواقع الأقدام ، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة . وانما هزم فى حنين مرة واحدة وهو غير مسئول عن اليوم كله كما قدمناه

أما اذا وجب التراجع فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة وأن يدبر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذى يصون الكرامة ويصون الدماء ويكون المخدوع المغلوب فيه هو العدو الذى أمكن التراجع من بين يديه ، وقد كان فى وسعه أن يبطش بالمتراجعين جميعا قبل أن يفلتوا من ارهاقه المطبقة عليهم

هذه هى الجندية البصيرة بمزاياها فى الكفة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هى الجندية الغالبة ابدا وهى فى اقدام أو فى احجام

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية

فمن أقواله : ان الجهاد شغلنى عن تعلم القرآن ، أو عن قراءة كثير من القرآن

وعذره فى ذلك حين قال ذلك المقال انه لم يقض فى ملازمة النبى غير أوقات جد قصار ، لأنه شغل السنوات الثلاث التى قضاها مع النبى بعد اسلامه وهو بين السرايا والغزوات

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه . ولكنها الخطب والكتب التى يستطيعها العربى الفصيح الناشىء فى كنف الفصحاء ، ثم هى كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه ، فاذا قال كلمة أو كتب سطرا فكأنما يكتب بحسام لا بيراع

كتب الى مرازبة فارس فقال : « الحمد لله الذى فض ملككم وأذل عزكم ، فاذا أتاكم كتابى هذا فابعثوا الى الرهن واعتقدوا منا الذمة واجيبوا الى الجزية ، والا والله الذى

لا اله الا هو لأسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كمـا تحبون الحياة ، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا »

وخطب فى المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق الى الشام فقال :

« لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسنة ، وان المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء يقع فيه مع معونة الله له »

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف كما قال حين سمع صائحا فى المعسكر يصيح : ما أكثر الروم وأقل المسلمين

فلم يكن أسرع منـه الى أن يقول : « بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين . أن الجيوش انما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان»

فكل كلمة منه فانما هى ضربة سيف فى صورة حروف ونبرات

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس انه على التشابه بينه وبين عمر كان فى عمر جانب فكاهة وان كانت خشنة غليظة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب فى عمله أو كلامه

وقد كان الأدنى الى الظن ـ عنـد النظرة الأولى ـ أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذى نشأ فى مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذى نشأ على العسر أو اليسر القليل

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها

لأن الاعسار فى الواقع أعون على الفكاهة من اليسار ، ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة فى أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد ، كلهـا ضرب من التعويض والمقابلة ، ولا غرابة فى ذلك حيث ننظر الى منشأ الفكاهة فى جملتها ،

فهى على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة والمواءمة . وما أكثر المفارقات فى حياة المعسرين

ولعلنا نبلغ مقطع القول فى هذه الملاحظة حين نقول : أن الموسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة ، وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول

رحم الله خالدا . انه كان جنديا وكفى !

لـكنه قد عوض فى جانبـه الواحد عن جوانب عدة فى الآخرين ، لأنه قد رزق الجندية فى طرازها الأول ، ورزق منها وحده ما يكفى عشرة من جنود التاريخ المبرزين



نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله فى مدينة حمص ـ زهاء سنوات أربع ـ لم يفارقها قليلا الا ليعود اليها

وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائدالكبير يطالبه بها فى حربه وسـلمه حيث كان . فمات من أولاده نحو أربعين فى سنة الطاعون

ولم ترو لنا كلمة قالهـا خالد فى موت هؤلاء الأبنـاء الكثيرين ، وهو الرجل الذى كان التبشير بغلام عنده فرحا من أكبر أفراح الحيـاة : فكأنما ألف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب ، فهو لا يلقاه أبدا لقاء غريب مريب

وتعقب الموت أبنـاءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم المهاجر من حزب على وعبد الرحمن من حزب معاوية . فمات المهاجر فى صفين ومات عبد الرحمن مسموما على ما قيل ، لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشـح يزيد بن معاوية لولاية العهد . فسقاه معاوية السم على يد الطبيب بن أثال

وما هى آلا فترة حتى انقرضت ذرية هـذا القائد الكبير ـ صاحب الموت والقدر ـ فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء أخيه

وانتهت حياة خالد رضى الله عنه نهايتها العجيبـة ، بين سنة احدى وعشرين واثنتين وعشرين

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه ـ كما قال ـ بعد أن شهد نيفا وخمسين زحفا فى نجد والحجـاز والعراق والشام ، ولم يبق فى جسمه مصح من كثرة الجراح

وليس هـذا كل ما فى موته من « غير المألوف » أو غير

المنظور ، فانه مات ولما يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير ، وليست هى بالسن التى تنتهى بها الحياة بغير مرض شـــديد . فان كان قد ألم به مرض عارض غير مميت فى جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء ، والفتور من الراحة ، وذلك الاضـطراب الذى كان يفزعه فى نومه وينتقع منه لونه اذا غضب أو ثار

ولم يوجد فى بيته عند موته غير فرسه وغلامه وســلاح وقفه للجهاد فى سبيل الله . فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به ... ونكس مرارا وهو يسترجع كلما رفع رأسه . ثم قال : كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة . قال لأمه : عزمت عليك ألا تبيتى حتى تســودى يديك من الخضاب

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر : أرســل اليهن فانههن، فقال : «دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة . على مثل أبى سليمان تبكى البواكى »

ولما سئل عمر أن يعهــد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربى فقــال لى : لم استخلفته على أمة محمد ؟ لقلت : سمعت عبــدك وخليلك يقول : لكل أمة أمين وان أمين هذه الأمة أبو عبيــدة بن الجراح ، ولو أدركت خالدا ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى : من استخلفت على أمة محمد ؟ لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : لخالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين !

ولعمرى ان « سيف الله » قد استحق هذه التزكية وهو فى الغمد كما استحقها وهو مشهور

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنا فى سيرة خالد بن الوليد

ان الحوادث قد وعظته بها فاتعظ فى صبر واباء • فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة • ولو شــاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه ، وهو الرجل الذى طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين

نعم انه لا فتنة وابن الخطاب حى كما قال ، وان الفتنة انما تخشى « اذاكان الناس بذى بلى » أو فى معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الامام

ولكن ادراك هــذا وحده مفخرة من المفاخر ، وليس كل ادراك كهذا الادراك بالذى يغلب الهوى ويقمع النزوات

فلا جرم يرشح الفاروق خالدا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة ، ولا جرم يعرف سيف الله فى الغمد كما عرفه وهو فى يمين البطل الجسور • فان يكن خالد مخشى المزاحمةعلى الخلافة فى ظن من الظنـــون فليس هو بمخشى عليها وقد وصلت اليه معهودا اليه خالصة من الزحام ، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها وريض لها سنوات تجرد فيها منسورة الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية ، وقرب ما بينه وبين الله

لقد مات ــ نصير الموت ــ مطمئنا الىنهاية حياته لا يكره منها الا أنها انتهت به على فراشه

ولكننا ــ أبنــاء آدم ــ نكره كثيرا ما يكون من حقنا أن نتمناه • وما كان لخالد أمنية قد بقيت له فى ميدان الكفاح يتمناها• لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريمالشجاع، ولم يبق له الا أن يعرفوه فى ميــدان العزلة وهو الشجاع الصبور • وقد عرفوه على هذه الصفة فى ميدان حمص ــ ميدان السلم والتسليم ــ خير عرفان وأجـــدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم

فهرس

صفحة

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لاحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج انيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لايرهق احدا من عشاق القراءة والاطلاع .. وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

الكتاب	المؤلف	الموضوع
عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	تحليل لشخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم
ماجلان : قاهر البحار	ستيفان زفايج	قصة طواف ماجلان حول الارض
هرون الرشيد	احمد امين بك	الحياة العامة والخاصة للخليفة هرون الرشيد
أبو الشهداء	عباس محمود العقاد	قصة استشهاد الامام الحسين رضى الله عنه
جنكيز خان	ف . بان	الحياة الحربية والسياسية لجنكيز خان
قلب النسر	أوكتاف اوبرى	قصة غرام نابليون وجوزفين

الكتاب	المؤلف	الموضوع
السيد عمر مكرم	محمد فريد ابو حديد بك	قصة حياة أول زعيم شعبى لمصر الحديثة
غاندى : الثائر القديس	لويس فيشر	قصة اشهر زعيم سياسى روحى فى الشرق
زعيم الثورة : سعد زغلول	عباس محمود العقاد	قصة الثورة فى حياة الزعيم الخالدسعد زغلول
الزعيم : احمد عرابى	عبد الرحمن الرافعى بك	لم يصدر بعد
بطلة كربلاء : زينب بنت الزهراء	الدكتورة « بنت الشاطىء »	قصة زينب بنت الزهراء ودورها فى معارك كربلاء
اشعب : امير الطفيليين	توفيق الحكيم بك	قصة أخف الطفيليين ظلا والطفهم واظرفهم نادرة
نفرتيتى	السيدة صوفى عبد الله	قصة ملكة مصر الفاتنة فى عصرها الذهبى التليد
حديث رمضان	الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى	تفسير بعض سور من القرآن الكريم

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية بشارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، واكشاك الصحف

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه ـ السور ـ العسيلى ·
المدخل الشمالى ص · ب ٥٤٣ بيروت

حلـــــب : الشيخ طاهر النعسانى

حمـــــاه : السيد سعيد نجار

اللاذقيـــة : السيد نخله سكاف

حمـــص : السيد عبد السلام السباعى ـ ص·ب٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص·ب٩٧

البحرين والخليج الفـــارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البـــرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400,
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجـــريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلتـــرا : مكتب توزيع المطبوعات العربية
Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب من كتب التاريخ التى تروى حياة القواد رواية احصائية لتسجيل الأحداث التى عاصروها ، أو الفتوحات التى قاموا بها سواء أكانوا غزاة مصلحين أم جبابرة فاتحين ، بل هو دراسة فنية لبطل من أبطال الاسلام ، وعلم من أعلام التاريخ ، وعبقرى من عباقرة الحرب والسياسة

ولقد كانت حياة خالد بن الوليد عبرة الدنيا ، وكانت عبقريته الحربية والسياسية معجزة الأزمان ، حتى لقب بسيف الله المسلول ، لما أوتى من مواهب ليست للكثير من قواد العالم ، ولما هيأ الله على يديه من نصر مبين على أكبر دولتين فى عصره ، فرفع لواء الاسلام على عروش الأكاسرة ، وقلاع الرومان ، وكان أكبر فاتح فى الاسلام ، ومن أعظم قواد التاريخ

ولم يكن خالد بن الوليد قائد [illegible] قائد أخلاق . ففى هذه الدراسة القي[illegible] كتاب « عبقرية خالد » كشف دقيق [illegible] فى أخلاق هذا القائد العظيم الذ[illegible] ثروة نفيسة من عظمة المواهب وعظ[illegible] وقدوة صالحة للشباب الطامحين ال[illegible] حياته أحسن الدروس ، وأجمل الأمثال